

الباب الرابع

الدوافع المكتسبة

- الفصل الرابع عشر : العواطف والخلق
- الفصل الخامس عشر : الحياة العقلية اللاشعورية
- الفصل السادس عشر : مدارس التحليل النفسي
- الفصل السابع عشر : تطبيقات علاجية وتربوية

الفصل الرابع عشر

العواطف والخلق

مقدمة عامة

رسمنا في البابين السابقين صورة للدوافع الفطرية عند الانسان ، وبيننا في خلالها دوافع الانسان ، أو غرائزه ، وحاجاته النفسية ، ونزعاته الفطرية . وتمثل كل هذه النواحي استعدادات تستثار عند توافر شروط معينة ؛ فنجد الانسان مدفوعا اذ ذاك للقيام بعمل معين كالبحث عن الطعام ، أو البحث عن الرفاق ، أو الضحك أو غير ذلك . وهذه الاستعدادات كما رأينا كثيرة متنوعة . وبعضها يدفع الانسان في اتجاه قد يتعارض مع الاتجاه الذى تدفعه فيه نزعة أخرى . فقد يدفعه تحقيق الرغبة الجنسية الى اتجاه فيه هلاكه . ولهذا تجده في نفس الوقت يتردد رغبة في الاتجاه الى جهة أخرى فيها المحافظة على حياته . فكأن تنوع الاستعدادات الفطرية المختلفة وكثرتها تؤدي الى شىء من عدم التنظيم لو بقيت على صورتها الفطرية البدائية . ولكننا نجد عادة أن سلوك الانسان البالغ فيه شىء من الاستقرار ، بحيث يسهل التنبؤ بما سيقوم به في ظروف معينة ؛ بخلاف الطفل الذى لا يسهل علينا التنبؤ بسلوكه في كثير من الأحيان . فالطفل يصرخ ويضحك ويلعب ويجذب هذا ويدفع ذاك دون تنظيم كبير ، ودون القدرة من ناحيتنا على توقع وتحديد ما سيصدر عنه . وهناك مثال آخر يبين الفرق بين سلوك الانسان البالغ وسلوك الطفل ؛ فالانسان البالغ الذى يعطف على الحيوان — وقد ينتمى الى جمعية الرفق بالحيوان — يغضب كثيرا اذا رأى حيوانا يضرب ، وقد يتخذ موقفا عمليا ازاء من وقع منه الضرب . ومعنى هذا أن افعال الغضب والدفاع عن الحيوان قد أثارتها

رؤية الضرب . ويتكرر هذا عادة كلما تكررت رؤيته لمثل هذا الحادث ، وبهذا يمكنك أن تتنبأ تنبؤا صادقا بسلوك هذا الشخص في مثل هذا الموقف . أما الطفل فقد يتأثر من رؤية حيوان يضرب وقد لا يتأثر ، وأحيانا نجد نفس الطفل يتأثر اليوم بما لم يتأثر به بالأمس . ونجد كذلك أن تأثر الطفل قد تختلف شدته من موقف الى آخر برغم تشابه هذه المواقف . ومعنى هذا أننا لا نجد ضابطا محكما لسلوك الطفل كذلك الضابط الذي نجده لسلوك الكبار . على أن سلوك الكبار أنفسهم يختلف من شخص الى شخص في درجة التنظيم ، وفي امكان التنبؤ به . وتنظيم السلوك عند الكبار نتيجة للخبرة أو للتعلم أو الاكتساب ، وهو مبنى على النزعات الفطرية بمختلف أنواعها . ونتيجة هذا التنظيم أن تكون استعدادات مكتسبة للسلوك . ونجد بعض هذه الاستعدادات في مستوى شعورى ، وبعضها الآخر في مستوى لا شعورى . ولا يقصد بالمستوى الشعورى أنها دائما شعورية ، ولكن يقصد أنها يمكن أن تكون شعورية . أما المستوى اللاشعورى فيقصد به أن الاستعدادات تكون دائما لاشعورية ، الا اذا اتبعت أساليب التحليل النفسى فى ايجادها على المستوى الشعورى ! ويطلق على الاستعدادات الشعورية المكتسبة اسم « العواطف » ، وتسمى أحيانا بالميل المكتسبة . أما الاستعدادات اللاشعورية المكتسبة فانه يطلق عليها اسم « العقد النفسية » . وقد اكتسبت كلمة « العواطف » صبغة اصطلاحية أكثر تحديدا من كلمة « الميول » ، ولهذا ستكون أغلب دراستنا منصبة على العاطفة ، مع تذكرنا أن العاطفة والميل يكادان يكونان مترادفين .

ويمكننا أن نقول بوجه عام : ان ميول الانسان اما فطرية واما مكتسبة . فالميول الفطرية تدخل تحتها الغرائز أو النزعات الفطرية أو الدوافع الأولية . أما الميول المكتسبة فتدخل تحتها العواطف والعقد . والمقصود بالميل الاتجاه النفسى . فالانسان يتجه الى تناول الطعام فى حالة الجوع . ومحب الموسيقى عنده ميل موسيقى . ولا يكون الميل دائما فى حالة نشاط ، بل يكون فى أغلب الأحيان كامنا ، ولا ينشط الا اذا استثير . ويستثار الميل

من الخارج بادراك ما يقابل هذا الميل ، فالموسيقى يستثار بالموسيقى وهى موضوع الميل . والمؤرخ يستثار بموضوع ميل آخر كالأثار والوثائق التاريخية وما الى ذلك . ويستثار الميل كذلك عن طريق التذكر أو التصور ، وفى هذه الحالة لا تكون المثيرات خارجية وانما تكون صادرة من داخل الشخص نفسه . وفى الوقت الذى لا أستمع فيه الى الموسيقى ولا يشغل ذهنى بها لا يكون الميل مفقودا ، وانما يكون موجودا بصورة كامنة مستترة . فاذا استثير الميل وجد الدافع الذى يدفع الكائن الحى للقيام بالسلوك .

العواطف

يقال : ان شخصا ما عنده عاطفة الحب نحو شخص آخر ، ونجد أن صاحب العاطفة يتأثر فى مواقف مختلفة نحو هذا الصديق تأثيرات تختلف من موقف الى آخر . فنجده يسر لنجاح صديقه فى مشروع ما ، ويحزن عليه عند مرضه ، ويفضب اذا اعتدى عليه ، ويفخر بنجاحه ، ويخاف عليه عند احتمال وقوع الضرر له . وهكذا نجد أن صاحب عاطفة الحب تستثار عنده هذه العاطفة فى مواقف مختلفة تتضمن موضوع هذه العاطفة وهو صديقه الذى يحبه . ويشعر صاحب العاطفة فى كل موقف من هذه المواقف بشعور انفعالى ، ويندفع فوق ذلك للقيام بسلوك يتطلبه الموقف . فاذا اعتدى شخص على صديقه بالاهانة أو بالتشهير ، فانه يفضب لذلك ويندفع لحماية صديقه أو للاعتداء على المعتدى . والعاطفة كما يتبين مما تقدم تشبه الغريزة . فالغريزة — كما قلنا — استعداد نفسى يستثار فى موقف معين . ويترتب على استثارته افعال وسلوك ، وهذا السلوك يتطلبه الموقف الذى كان عاملا من عوامل استثارة الغريزة . وكذلك العاطفة استعداد يستثار بالمواقف التى تتضمن موضوعا معيناً ، ويترتب على الاستثارة افعال وسلوك يتطلبهما هذا الموقف المعين ؛ غير أن الغريزة استعداد فطري والعاطفة استعداد مكتسب . وكل استعداد يكون اما كامنا واما فى حالة نشاط ؛ فالشخص الذى يذهب الى عمله فى أثناء النهار ولا يذكر فى هذه

الفترة زوجته وأولاده ، لا يكون قد فقد عاطفة الحب نحوهم ، وإنما تكون عاطفة الحب موجودة في حالة كامنة تستثار اذا وجد في موقف يتعلق بأحد هؤلاء ، كالمرض مثلا أو الاعتداء أو النجاح أو غير ذلك ، فادراك هذه النواحي يستثير هذه العاطفة ، ويترتب على استثارة كل منها انفعال يختلف باختلاف الاستثارة وسلوك يتفق والموقف المثير . ومعنى هذا أن العاطفة استعداد عقلي مكتسب يرتبط بموضوع ، ويؤدي الى دفع الكائن الحي للقيام بأنواع من السلوك ترتبط بهذا الموضوع .

ولكى نبين كيف تتكون العاطفة نأخذ مثلا العاطفة التي تتكون بينك وبين شخص تقابله لأول مرة في حياتك . ولنخرج من بحثنا ما يستثار عندك من انفعالات نتيجة لخبراتك السابقة (١) ، مما يؤثر في أحكامك ومشاعرك نحو هذا الشخص . فهب أن هذا الشخص كان معك على جانب من الأدب والمجاملة والكرم ، وكان ميالا الى خدمتك ومعاونتك ، وادخال السرور على نفسك ، واطهار العطف عليك . اذا حدث هذا كله كان مجالا طيبا لارضاء « غرائزك » وحاجاتك . وكان في تكرار وجوده في مجال حياتك مبعث لانفعالات سارة في مجموعها . وبهذا تجد نفسك على ضوء الخبرة المتكررة تشعر كلما قابلته بالارتياح لمقابلته . وبعد وقت قد تسمع أنه مرض فلا تتمالك الشعور بالألم ، وتجد نفسك مدفوعا لمساعدته حتى يشفى . واذا علمت أنه قام بعمل عظيم فانك تشعر بالزهو ، وتندفع للتعبير عن هذا الزهو بأساليب عدة . واذا سمعت شخصا يهجو أو يخدش سمعته فانك لا تلبث أن تغضب ، وتجد نفسك مدفوعا لرد الاعتداء بمثله أو للدفاع عنه . ثم اذا سمعت أن خيبة أصابته في مشروع قام به ، فانك تشعر في نفسك بشيء من الاستكائة ، وبشيء من الخيبة . فكأن عاطفة الحب تكونت نتيجة لخبرات متكررة بموضوع معين ، وهذه الخبرات المتكررة صحبتها انفعالات في مجموعها سارة . يقال في هذه الحالة : ان الشخص تكونت لديه عاطفة حب نحو الشخص الآخر . وتوجد هذه العاطفة في صورة كامنة ، أو كما يقول « مكدوجل » كجزء من تكوين العقل ، أو كاستعداد

(١) هنا يشار إلى الحب والكرامية من أول نظرة .

عقلى يستثار اذا توفرت شروط تجتمع فى صاحب العاطفة وفى مجال حياته فى أثناء الاستشارة ، فينفعل ويقوم بسلوك ، وكل من الانفعال والسلوك يختلف باختلاف الموقف الذى تحدث فيه الاستشارة . ويمكننا أن نتبين هنا فرقا آخر بين العاطفة و « الغريزة » ، فالغريزة مهما اختلفت المواقف المشيرة لها ، ومهما اختلفت أنواع السلوك المصاحبة لها فان لها انفعالا ثابتا فى نوعه ، كالخوف فى غريزة الهرب ، والغضب فى غريزة المقاتلة ، والحنو فى الوالدية وغير ذلك . أما العاطفة فان استثارته مصحوبة بانفعالات مختلفة تتنوع بحسب المواقف . فمرض الصديق يستثير فى صاحب العاطفة الخنو ، وخيبة الصديق تستثير فى صاحب العاطفة التألم والاستكائة ، ونجاح الصديق يستثير فى صاحب العاطفة الزهو والفخر والسرور . فكأن عاطفة حب الصديق اذا استثيرت فان استثارته تؤدى الى ظهور انفعالات مختلفة ، بخلاف الغريزة التى اذا استثيرت فانها تؤدى الى ظهور انفعال خاص

لنأخذ مثلا آخر يبين كيفية تكون العاطفة ؛ هب أنك قابلت شخصا لأول مرة فى حياتك . وهب أنك لم تشعر نحوه فى المقابلة الأولى بتلك الانفعالات التى تشعر بها أحيانا عند أول مقابلة ، نتيجة لتأثرنا بانفعالات سابقة ، ونتيجة لوجود أوجه شبه دقيقة بين الشخص أو الموقف فى هذه المقابلة الأولى ومماثلهما فى الماضى (١) . ثم هب أن هذا الشخص كان كثير التهكم عليك ، وميالا الى ابراز عيوبك واخفاء محاسنك ، وكان معدوم المجاملة شديد الجفاء ، لا يكثرث لما أنت فيه من مرض أو خيبة ، بل قد يعاون على خلق الظروف التى تزيد حالتك سوءا على سوء . وهب كذلك أنك شعرت منه بالتضايق فى حالة نجاحك وتقدمك . كل هذه المواقف المختلفة التى يتكرر فيها وجود هذا الشخص تصحبها فى نفسك انفعالات فى مجموعها مؤلمة ومنفرة . واذا تكررت هذه المواقف مع هذا الشخص فى مجال حياتك ، فانك لا تشعر نحوه بالليل أو الحب ، وانما تشعر بكرهيته والنفور منه . فاذا علمت بخيبته فى الحياة فان هذا قد

(١) هنا يشار مرة أخرى الى الحب أو الكراهية من أول نظرة .

يثير فيك نوعا من الارتياح ، أو على الأقل لا يثير فيك عادة ما يثيره من التألم لو كان في موضعه صديق عزيز عليك . وإذا اعتدى عليه شخص بالاهانة والهجاء فانك قد تشترك معه في نفس الاتجاه ، أو على الأقل تجد نفسك مستريحا لما تسمع ، ولا تجد نفسك ميالا للدفاع عنه أو للاعتداء على من تصدر عنه الاهانة . وإذا سمعت تعديدا لحسناته فان هذا قد يثير فيك الغضب ، وقد يدفعك الى نقض ما تسمع أو الاعتداء على مصدره . فالموقف الذي أثار الغضب في عاطفة الحب أثار السرور في هذه العاطفة . والموقف الذي أثار التألم والاستكانة في عاطفة الحب أثار الشعور بالرضا والارتياح في هذه العاطفة . ويقال في هذه الحالة : ان الشخص قد تكونت لديه عاطفة الكراهية نحو الشخص الآخر . والطريقة التي تكونت بها عاطفة الكراهية تشبه تلك التي تكونت بها عاطفة المحبة . غير أن الخبرات التي يتكرر فيها موضوع عاطفة المحبة تكون عند تكون العاطفة في مجموعها سارة وأما الخبرات التي يتكرر فيها موضوع عاطفة الكراهية فانها تكون مصحوبة عند تكون العاطفة بانفعالات تنصف في مجموعها بأنها مؤلمة أو غير سارة . ولا نقصد ان الانفعالات المصاحبة للخبرات الأولى التي تؤدي الى تكون العاطفة تكون كلها انفعالات سارة في حالة الحب ، ومؤلمة في حالة الكراهية ، ولهذا قلنا : ان أغلب الانفعالات في الحالة الأولى تكون سارة وأغلبها في الحالة الثانية تكون مؤلمة . ولهذا نجد أن حبك لصديق يختلف عن حبك لصديق آخر ، وذلك لاختلاف الخبرات ، و لاختلاف النسبة بين الانفعالات السارة والمؤلمة عند تكون هذه العواطف . وتبا لاختلاف عواطف الحب تختلف الانفعالات المستثارة في المواقف المتشابهة . فأنا أحب شخصين « ا ، ب » . ولكن اذا مرض « ا » فانتى لا أتألم بنفس الدرجة التي أتألم بها اذا مرض « ب » بنفس المرض .

وإذا وازنا بين الطفل والبالغ نجد أن غرائز الأطفال أو دوافعهم أو نزعاتهم تدفعهم للقيام بالسلوك في الصور الفطرية البدائية . فالطفل اذا شعر بالجوع وضع أول ما يقابله من الأشياء في فمه . واذا وقف أى

شخص في سبيل تحقيق غرائزه ، فانه يعتدى عليه بالضرب وبالصرخ ، سواء أكان هذا الشخص الذى يعترض سبيله أمه أو أباه أو أى شخص آخر . ونجد الطفل عادة - كما سبق أن بينا - يضحك ويلعب ، ويبكى ، ويصرخ ، ويجرى ، وينط ، ويقذف ، ويبحث ، ويهرب ، وهكذا ، وقد يحدث كل هذا فى خلال فترة زمنية قصيرة . أما الانسان البالغ - كما نألفه - فان محركات السلوك عنده يغلب أن تكون مرتبطة بموضوعات أو بأشخاص أو بأفكار مما يتصل بحياته . فتركز محركات السلوك عنده حول أفراد أسرته ، وحول وطنه ودينه ، وحول موضوعات مبيهة المختلفة كالموسيقى والكتب والآثار وغير ذلك ، وحول أفكاره ومبادئه وذكرياته . هذه تصبح استعدادات مكتسبة على جانب كبير من القوة لا تقل عن قوة الغرائز نفسها . وتصبح هذه الاستعدادات محركات مستقلة للسلوك (١) . وباختلاف موضوعات هذه العواطف وقوتها يختلف تقديرنا للأشخاص . فالشخص الذى تكون عنده عاطفة حب الصدق ، يختلف فى نظرنا عن ذلك الذى تكون عنده عاطفة حب الكذب . والشخص الذى يجب وطنه أكثر من الآخر ، يكون له عندنا تقدير أرقى من تقديرنا للآخر . من هذا نرى أن تكون العواطف فيه تنظيم لمحركات السلوك على مستوى أعلى من مستوى الغرائز . ونرى كذلك أن العاطفة هى استعداد مكتسب ناشئ عن تنظيم النزعات الفطرية حول موضوع معين . فغريزة المقاتلة مثلا ودافع الاستطلاع وبقية الغرائز والدوافع بدل أن تشور متصلة بأى موضوع ، تجدها تتحرك متصلة بموضوعات العواطف ، وبذلك يقل ظهورها متصلة بموضوعات أخرى . فيتحدد نوعا ما اتجاه النزعات الفطرية وتصبح موضوعات العواطف أكثر استثارة لها من غيرها . بهذا يحدث بعض التنظيم فى سلوك الانسان . ويزداد هذا التنظيم عادة تدريجيا مع نموه من طفولته الى اكتمال نضجه .

(١) راجع فكرة الاستقلال الوظيفى للدوافع « أولبورت » فى الفصل

السابق .

ويرجع الفضل الى « شاند » في كونه أول من ميز بين العاطفة والانفعال، وفي كونه أول من بين أن العاطفة هي تنظيم الانفعالات أو الاستعدادات الانفعالية حول موضوع أو فكرة . ولكن « شاند قد بالغ في قوله : ان الانفعالات التي تتصل بعاطفة الحب هي نفس الانفعالات التي تتصل بعاطفة الكراهية ، غير أنها تستثار في عاطفة الحب في مواقف مغايرة للمواقف التي تستثار فيها عاطفة الكراهية . فالغضب مثلا يستثار اذا أهين الصديق ويستثار كذلك اذا أكرم العدو . ووجه المبالغة أن رأى « شاند » لا ينطبق على كل الانفعالات ؛ فانفعال الحنو يستثار مع عاطفة الحب ، ولكن لا يوجد موقف من المواقف يرتبط بعاطفة الكراهية يمكن أن يظهر معه انفعال الحنو . كذلك الاشتمزاز يظهر مرتبطا بعاطفة الكراهية ، ولا يوجد موقف من المواقف يمكن أن يظهر فيه الاشتمزاز مرتبطا بعاطفة الحب الصحيح . والسرف في وقوع « شاند » في هذا الخطأ أن استقصاءه للانفعالات كان أضييق من استقصاء « مكدوجل » ومن تبعوه لها . والخطأ الآخر الذي وقع فيه « شاند » أنه يتحدث عن العاطفة كما لو كانت تنظيما للانفعالات حول موضوع معين ؛ وهي في الواقع تنظيم للنزعات الانفعالية ؛ أي أنها تنظيم لاستعدادات تتضمن القيام بسلوك ملائم . ويمكننا هنا أن نوازن بين عاطفة الحب عند شخصين « ا ، ب » في حالة حبهما لشخص ثالث « ح » . فاذا مرض « ح » ، وعلم كل من « ا ، ب » فقد تجد « ا » يتألم ، ولا يفعل شيئا ، أما « ب » فانه قد يتألم ، ويسعى بمعونة عملية جديده نحو « ح » . وبهذا يكون سلوك « ا » تغلب عليه صفة التأثير الانفعالي مع عدم خلوه من بعض التعبير عنها أو بعض النواحي العملية القاصرة . أما « ب » فان عاطفته اذا استثيرت تستكمل فيها النواحي الانفعالية والنواحي العملية . ولأهمية النواحي العملية النزوعية لا يجوز اهمالها في تحديد معنى العاطفة . ليس معنى هذا أن « ا » لم تتكون لديه عاطفة نحو « ح » ؛ ولكن معناه ان عاطفة « ب » أكثر اكتمالا من وجهة نظر الصحة النفسية من عاطفة « ا » وذلك لوضوح التعبير النزوعي في حالة « ب » . ولهذا وجب أن نقول : ان العاطفة هي استعداد مكتسب ناتج عن تنظيم النواحي الانفعالية والنزوعية نحو

موضوع معين . وأما « مكدوجل » فانه استفاد كثيرا من آراء « شاندا » ،
واليه يرجع الفضل فيما تثبته هنا عن العواطف من آراء .

تطور العواطف

سبق أن أشرنا الى أن الطفل يبدأ حياته سريع التأثر ، سريع الاستجابة ،
متنوع الانفعالات ؛ فهو يبكي للجوع ، وتظهر عليه علامات الرضا للرضاعة ،
ويصرخ من الألم ، ويشمئز من الطعام الكريه ، ويتنسم لرؤية أمه الى غير
ذلك . وبعد مدة من الزمن نجد أن الأم أو من يقوم مقامها قد أصبحت
مصدر انفعالات مختلفة ؛ فالطفل يغضب لبعدها عنه ، ويسر لقربها منه ،
وبالجملة، يصبح لها في نفسه معنى خاص ، وتكون بذلك قد تكونت عاطفة
حب الأم . وتتكون للطفل بنفس الطريقة عواطف متعددة ، يترتب على
استثارة كل منها مشاعر انفعالية ، وقيام بسلوك يتطلبه الموقف . وتتكون
للطفل عاطفة نحو أبيه ، وأخرى نحو لعبته ، وثالثة نحو قطته أو كلبه
وهكذا . وعواطف الطفل تنمو على وجه العموم حول المخلوقات الحية أكثر
مما تنمو حول الأشياء الجامدة . وتنمو كذلك حول الأشياء المتحركة أكثر
مما تنمو حول الأشياء الساكنة . ونجد أن الطفل في حالة تمرکز عاطفته
نحو شيء غير حتى يسلك كما لو كان يتصور أنه حتى . وهذا مما يفسر
بعض ما يقوم به الأطفال من محادثات تجرى بينهم وبين دميائهم التي
يكسونها بالملابس ، ويقدمون لها الأطعمة، ويغدقون عليها الهدايا ، ويوقعون
عليها العقاب . وهذه الظاهرة تسمى نسبة الحياة الى الجماد « Animism »
ويمكن على ضوءها تفسير ميل الأطفال الى اللعب الميكانيكية القادرة على
احداث الحركة ، لأن الحركة أقرب من السكون الى الحياة .

والعواطف تكون على وجه العموم مادية أو معنوية . فالعواطف المادية
تتمركز فيها المحسوسات كالأشخاص والأشياء . وأما العواطف المعنوية
فتتمركز فيها المعنويات كعاطفة حب الجمال ، وحب الشرف ، وكراهية
الظلم ، واحترام القوة ، واحتقار الخيانة . أما العواطف المادية فيمكن أن
تكون فردية أو جمعية . فالعواطف الفردية تتمركز نحو فرد ، كحب الطفل

لقظته ، وكحب شخص لبيته . أما العواطف الجمعية فان مراكزها لا تكون أفرادا وانما تكون مجموعات . فهناك من الناس من تجده يحب الققط بوجه عام ، ويكره الكلاب بوجه عام أيضا . ومن أمثلة هذا النوع الحب الذى تتضمنه هواية جمع الآثار ، وتربية الخيل ، ورعاية النبات ، والرفق بالحيوان وما الى ذلك . ونجد نوعا من العواطف يقع بين العواطف المادية والعواطف المعنوية ، كحب الصحة وكرهية المرض ، وحب الغنى وكرهية الفقر .

ويمكننا بوجه عام أن نرسم صورة لتطور العواطف ؛ فالطفل يبدأ حياته عادة بعواطف مادية . وتأخذ هذه العواطف المادية فى الاتساع بالتدرج . ويصحب هذا النمو كثير من التداخل ، فلا يمكننا أن تفصل بين مرحلة وأخرى . فبعد أن تتكون عاطفة الأم ، نجد أنها تتسع فتشمل الأب ، ثم تتسع فتشمل بعض أفراد الأسرة ، ثم تتسع لتشمل الأقارب وزملاء اللعب . وبعد ذلك تتسع لتشمل المدرسة والبلدة ، ثم تتسع لتشمل الأمة ثم العالم أجمع . وهذه الأخيرة هى أوسع دائرة للعواطف وهى من غير شك أرقاها . فهى عاطفة الانسانية عامة دون تحيز لبلد أو لدين . وفى هذه المرحلة نجد العاطفة تشبه العواطف المعنوية بل وتتحد معها . فحب الانسانية يتفق مع حب العدل وحب الشجاعة . وعاطفة الانسانية هى أولى مستلزمات المصلحين العالميين من الأنبياء والفلاسفة ودعاة السلام العالمى .

ويلاحظ أن العاطفة المعنوية الصرف تكاد لا يكون لها وجود ؛ فهى تتبع عادة من العواطف الفردية ، وتتحقق فى أشخاص الأفراد . فلو أخذنا حب العدل نجد أنه ينشأ من خبرة يتكرر فيها الشعور بتحقيق العدل ، والشعور بنتيجة الظلم ، وينشأ مما يصحب هذا من انفعالات سارة فى حالة العدل ، ومؤلمة فى حالة الظلم . ونتيجة تكون عاطفة حب العدل هى العمل على تحقيقه مع أفراد الانسان . فعاطفة حب العدل — كعاطفة تتركز حول أمر مجرد تجريدا تاما — تكاد لا يكون لها وجود . وفى أثناء انتقال الطفل من مرحلة الى أخرى أرقى منها لا يفقد خصائص المرحلة السابقة . فالتلميذ

يقطع مرحلة التعليم الابتدائي والثانوي ، وتتسع عواطفه فتشمل أفرادا ومجموعات ومعنويات . ومع ذلك تجده يتمسك ببعض ملامسه القديمة ، ويشعر بعاطفة نحوها ، لأنها كانت تجلب له بحسب اعتقاده حظا سعيدا عند دخول الامتحان . وهذا ينطبق على احتفاظنا بهدية من صديق عزيز برغم مرور زمن طويل عليها ، وحلول التلف بها ، وانعدام فائدتها ، وكذلك على حب العالم لكتاب بال قديم احتفظ به سنوات طويلة ، وقرأه وهضمه وليست له به حاجة حقيقية . ومع ذلك نجده يفضب اذا نقل الكتاب من مكانه ، أو اذا تمزقت بعض أجزائه . ونجده عندما يرتب كتبه يعامل هذا الكتاب برفق وعناية ، لا يفسرها الا قوة عاطفته نحو هذا الكتاب . كذلك الطفل الذي يحب قطنه يكبر فيجب القشط جميعها ، دون أن ينقص هذا من حبه لقطنه . وكان « دارون » يحب جمع بيض الطير ، وتدرج هذا الى حبه لجمع أنواع مختلفة من البيض ، وكان يرتبها ويحفظها . وانتقل به هذا الى أن اتسع حبه فشمل الطير والحيوان . ثم اتسع حبه الى أن شمل الحياة في صورتها العلمية ، فوضع لنا أسس علم الحياة الحديث .

ويمكننا أن نرى في عاطفة الطفل نحو أمه مرونة في مركز العاطفة . فالطفل يرى أمه في أوضاع مختلفة ، وبملابس مختلفة . ويلاحظ أن الطفل الصغير في الأشهر الست الأولى عندما يرى أمه بلباس لم يعهدها به من قبل يهش كما لو كان يقول لنفسه : انها برغم هذا التغيير هي بعينها أمي لم تتغير . وبنفس الطريقة تتكون العواطف الفردية العامة ، وتتكون العواطف الجمعية ، وكذلك تتكون العواطف المعنوية . فالناشيء في دور المراهقة يعجب بأحد المدرسين ، ويعجب ببعض الشخصيات التاريخية . وعلى المدرس أن يعاونه في هذه السن على دراسة حياة الزعماء ، والشخصيات التاريخية ، وأبطال الانسانية دراسة تؤدي الى نقل اعجابه من شخصية أو شخصيات معينة ، الى الصفات العالية التي يتصفون بها .

العاطفة السائدة (١)

سبق أن بينا أن تكوين العواطف يترتب عليها تنظيم السلوك والدوافع

(١) فكرة العاطفة السائدة تعتبر محورا من محاور التفكير عند « أولبورت » صاحب فكرة الاستقلال الوظيفي للدوافع .

الفطرية وتوجيهها وجهات معينة . ولهذا نجد أن العاطفة تكسب الفرد قسما كبيرا من الثبات والاستقرار ، وتجعلنا قادرين على التنبؤ بسلوكه ، لأن الفرد بعد أن كان قابلا للاتجاه أية وجهة ترتبط بما يستثير غرائزه أو دوافعه ، أصبحت استثارة غرائزه أو دوافعه مرتبطة بموضوعات معينة تهمة كالأولاد والعلم والوطنية ، وأشخاص معينين ، وأماكن معينة وهكذا . فإذا فرضنا أن تلميذا ما عوقب من أحد مدرسيه ، فإن طريقة مقابلته لهذا العقاب يتحدد اتجاهها بنوع عاطفته نحو المدرس . فإن كان يحب مدرسه ، تجده يقبل العقاب راضيا ويستفيد منه . وأما ان كان يكره المدرس ، فإنه يتذمر من عقابه ، وقد يشور في وجهه ، ولا يستفيد منه شيئا مهما حسن قصد المدرس . ويمكننا أن نتنبأ بموقف التلميذ اذ ذاك متى عرفنا عواطفه . والقدرة على التنبؤ بسلوك الشخص في موقف ما يمكن أن تكون دليلا على ثبوته واستقراره ووحدة اتجاهه . ونجد من بين العواطف العديدة لدى الشخص البالغ عاطفة تكون سائدة عادة على بقية عواطفه ومتحكمة في تصرفاته . فنجد عاطفته نحو المال ، أو نحو العلم ، أو نحو الوطن ، أو نحو الدين ، أو نحو الذات . وإذا وجدت العاطفة السائدة فإنها توحد وجهة العواطف والنزعات المختلفة . فالشخص الذي يحب المال حبا جما ، ولا يفضل عليه أمرا آخر تجده يصادق من يساعدهونه على تحقيق اتجاهه ، ويكره من عداهم ويحب أولاده اذا شاركوه اتجاهه وساعدوه على تحقيقه ، ويكرههم اذا عملوا في اتجاه ضد هذا الاتجاه ، وتجده يغضب اذا تأخر عليه مدينوه في دفع ما عليهم ، وقد لا يغضب لافتضاح جهله ، أو امتهان كرامته ، أي أن نشاطه العقلي يسير كله نحو غاية واحدة ، وهي اشباع عاطفته السائدة .

وفي شخص آخر قد تكون العاطفة السائدة هي حب الوطن ، فتجد جهوده كلها متجهة لتحقيق هذا الاتجاه ، فتتصب قراءته على تاريخ الحركة الوطنية وسير الزعماء ، ويتجه اختياره لأصدقائه في اتجاه معين يساعد على اشباع اتجاهات عاطفته . وتصل ببعض الناس عاطفة الوطنية الى درجة

لا يسهل تصورهما . فبعضهم يضحى بماله عن آخره ، وبعضهم يضحى بأولاده إذا لزم الأمر ، وبعضهم يضحى بنفسه عن طيب خاطر ان كان في ذلك تحقيق لاتجاهات عاطفته . وهكذا نجد وحدة في اتجاهات سلوك هذا الشخص القوى العاطفة نحو الوطن . وتطبيقا لما سبق ، تتكون هذه العاطفة من خبرات متكررة يشعر المرء فيها بحماية الوطن له وبقيمته في اثبات ذاته . فالذى يشعر بأن مصريته مصدر شعوره بكرامته ، ومصدر حمايته ، ومصدر اطمئنانه على نفسه وعلى أولاده في نواحي كسب العيش والتعليم والتمتع بالصحة وما الى ذلك ، لا بد أنه يشعر بالدافع لخدمة وطنه ، وللدفاع عنه إذا لزم الأمر . وعاطفته الوطنية تتكون كذلك امتدادا لعاطفة حب البلدة ، وحب المدرسة ، وحب البيت . وهذه العواطف لا تتكون اعتباطا ، وانما تتكون عن طريق التعهد والرعاية على أسس يسهل على القارئ استنباطها . ويتم هذا التعهد وتلك الرعاية في جو البيت والمدرسة والبلدة .

كذلك نجد عاطفة حب الدين تصل في بعض الأشخاص الى درجة أنها تسيطر على تفكيرهم ، وعلى مشاعرهم ، وعلى اتجاهات سلوكهم بصورة تشبه الصورة التي بينها . وعند تكون العاطفة الدينية يبرز أثر التعاليم الدينية ، ويبرز أثر الجو الدينى المخلص . وهنا ندرك أهمية المشاركة الوجدانية والاستهواء والتقليد في تكوين العواطف على أن نذكر أن هذه العوامل تشترك معها عوامل أخرى ، كمارسة الطقوس الدينية ، وتلقى التعاليم الدينية ، والوقوف على حكمة هذه التعاليم .

وأحيانا تجد أن العاطفة السائدة هي عاطفة حب الذات . فتجد جهود الشخص كلها موجهة نحو ذاته لتعظيمها وارضائها . فهو يجب من يتحدثون عنه بالمدح ويعطف عليهم ويكرمهم ويكثر من التمشدق بالحديث عن نفسه ويشتاق لأن يكون مركز الانتباه والاعجاب . وقد تجده مغرما بالتألق واطالة النظر في المرأة ، أو في صوره التي يملأ بها أركان منزله . وقد يكون مغرما برؤية امضائه أو اسمه على الورق ، أو رؤية صورته في

جريدة أو اسمه في كتاب . وتجده يغضب في أى موقف يتضمن وقوفا في سبيل تحقيق تعظيم ذاته ؛ وبعبارة أخرى : تجد أن نشاطه نحو ارضاء ذاته ، وتحقيق هذا يجعله سعيدا . وهذه الظروف بعينها تسبب النضج والسامة لفرد آخر عاطفته السائدة تتمركز في نشر العلم ، أو خدمة المجتمع ، أو نصرة الانسانية أو ما شابه ذلك . ويرى بعض المشتغلين بعلم النفس أنه يمكنهم قياس النضج الوجداني أو العاطفي لدى الفرد ، بأساليب يتبين منها ان كان الشخص مهتما بنفسه ولا يكثر لأى شىء آخر فيعدونه في الطفولة . وان كان ثائرا على الناس وعاداتهم ونظمهم فيعدونه في دور المراهقة . وان كان مهتما بصالح الجماعة أو صالح الانسانية عامة فهو مكتمل النمو .

وعلينا أن نفرق بين حب الذات أو الأناية ، واحترام الذات ، فنجد ان للشخص مستوى يحترم نفسه عليه ؛ فاذا قصر دونه لم يرض عن نفسه واذا وصل اليه أو جاوزه فانه يشعر باحترامه لنفسه ؛ فالطفل الأمين اذا انزلق مرة الى السرقة فانه يتضايق من نفسه ، ويشعر باحتقاره لها . أما اذا قام بما يتفق ومستوى الأمانة فانه يشعر باحترامه لنفسه . ونجد ان شخص يحترم نفسه اذا قام بأعمال دون الأخرى . وتختلف هذه الأعمال من شخص الى آخر . وتختلف تبعاً لذلك المستويات التي يحترم عليها مختلف الناس أنفسهم . فالتلميذ المتفوق على أقرانه يحترم نفسه ما دامت أعماله في مستوى التفوق . وأما اذا تأخر عما كان ينتظره لنفسه فانه قد يحتقر نفسه أو يتضايق منها . أما التلميذ المتأخر فقد يحترم نفسه لمجرد النجاح في الامتحان ، وقد يحترم نفسه كذلك للتفوق الرياضى أو الاجتماعى . معنى هذا أن الشخص بنموه يكون عن نفسه فكرة معينة ، ويرضى عن نفسه اذا حققت هذه الفكرة ، ويشعر بالتألم وعدم الارتياح اذا تحقق له عكسها ، أو اذا لم تتحقق . وهذه الفكرة تكون مركزا لعاطفة تسمى عاطفة احترام الذات . ومن الجائز أن يقوم المرء بأنواع من السلوك تتفق مع فكرته عن نفسه ، وقد لا يشعر معها باحترامه لنفسه . فالغلام الذى

يتسول في الطريق العام ليكسب قوته في الوقت الذي يمكنه فيه أن يلجأ إلى طريقة محترمة لكسب أقل ، لا يشعر باحترامه لنفسه ، وإن كان قد رضى لنفسه مستوى معيناً أو فكرة معينة . ولهذا يفرق علماء النفس بين احترام الذات وعاطفة اعتبار الذات .

والفكرة التي تتمركز حولها عاطفة اعتبار الذات تمتد أحياناً إلى ما حول الشخص . فهي تمتد إلى أفراد أسرته وممتلكاته وبلدته ودينه ومدرسته وغير ذلك . ونقصد بهذا أن الشخص يسلك كما لو كان يرى في كل هذا جزءاً من ذاتيته ؛ فالاعتداء على سمعة المدرسة التي تعلم فيها اعتداء على سمعته . والاطراء بميزات أفراد أسرته فيه اطراء لذاته . وتتوقف أحياناً درجة احترام الشخص لنفسه ، واحترام الناس له ، على مدى اتساع الميدان الذي تنعكس فيه نفسه . فالشخص الذي تنشر مقالاته وكتبه وخطبه وتعاليمه بين عدد كبير من الناس ، ينال في العادة احتراماً أكثر من الذي ينتشر إنتاجه بين عدد قليل . كذلك الشخص الذي يمتلك الأراضي الواسعة ، ويمتلك المال والثروة والسلطة ، ينال في العادة احتراماً أكثر من الشخص الفقير . هذا بشرط أن يتساوى كل منهما في مختلف الظروف الأخرى كمستوى الثقافة وما إلى ذلك . وامتداد اعتبار الذات في ميادين مختلفة ، يدعونا إلى توسيع ميول التلاميذ ، وتكوين عاطفة بينهم وبين كثير من الميادين والأشخاص والأشياء .

لاحظنا من كل ما تقدم أن العاطفة الرئيسية تعمل على توجيه السلوك وجهة تتفق مع هذه العاطفة . فالشخص الذي يحب المال وينجح في مضاعفة ثروته يحقق في الحياة الواقعية اتجاهاته النفسية . يقال في هذه الحالة : إن الشخص قد نجح في تحقيق ذاته . كذلك الشخص الذي يرى في نفسه أنه مهندس بارع ، قد لا يجد الفرصة لتحقيق ذاته ، فيظل قلقاً قليل الرضا عن نفسه . ولكنه قد يجد ظروفًا ملائمةً ينجح فيها في إقامة الإنشاءات الهندسية ، فيرى فيها عند تمامها تحقيقاً لذاته . ومن أكبر الشخصيات التي تمتعت بتحقيق ذاتيتها ، شخصية المخترع الأمريكي « اديسون » الذي رأى ثمرات

اختراعه تنتشر بين الناس ويستعملونها لفائدتهم . فرأى الكهرباء – بفضل
اختراعه للمصباح الكهربائي – تضيء المدن الأمريكية ، ورأى الناس
يستمعون لأصواتهم بعد تسجيلها .

تكامل الشخصية

أشرنا الى أثر العواطف في تنظيم الدوافع الفطرية وتوجيهها ووجهات
موحدة . والوحدة التي تنصف بها النزعات الفطرية والمكتسبة عند الفرد ،
تسمى بتكامل الشخصية . ولكي نقرب الى أذهاننا فكرة تكامل الشخصية ،
نشير أولا الى العناصر الأولية التي تتكون منها الشخصية . ويمكن تقسيم
هذه العناصر الى قسمين كبيرين ، أحدهما تدخل تحته الصفات المزاجية
المختلفة ، والقسم الآخر تدخل تحته الصفات الإدراكية المختلفة . وتدخل
تحت الصفات المزاجية عناصر فطرية وأخرى مكتسبة . والصفات الإدراكية
كذلك تدخل تحتها عناصر موروثية وأخرى مكتسبة . وكل مجموعة من
هذه العناصر يمكن أن تنقسم الى عامة وخاصة . فالعواطف تدخل عادة
تحت الصفات المزاجية المكتسبة . والذكاء هو القدرة الإدراكية العامة
الموروثية . وللإنسان مستوى ثقافي عام يدخل تحت العنصر الإدراكي العام
المكتسب . وهكذا نجد الفرد مكونا من مجموعة كبيرة من الاستعدادات
الفريزية والمزاجية والإدراكية ، العامة والخاصة ، الفطرية والمكتسبة .
ونجد كل عنصر من هذه العناصر لدى الفرد بقدر معين . فنزعة المقاتلة
تختلف في قوتها من شخص الى شخص آخر ، والذكاء يختلف مقداراه
كذلك من شخص الى آخر . والأساس الجسمي للمزاج الذي يرجع بعضه
الى افرازات الغدد ، يختلف من شخص الى آخر اختلافا يمكن قياسه في
بعض الأحيان قياسا دقيقا . وهذه المقادير تختلف من شخص الى آخر .
ويرجع بعض هذا الاختلاف الى الوراثة ، وبعضه يرجع الى البيئة والخبرة .
ومثل الفرد – وهو مجموعة كبيرة من الاستعدادات المختلفة – كمثل
عدد كبير جدا من الأشخاص . فلا يصح أن نطلق عليهم اسم جماعة الا اذا

ربطتهم بعضهم ببعض رابطة متينة . فالذى يقف عند ملتقى شارعين كبيرين من شوارع القاهرة يلاحظ أنه ليست هناك علاقة خاصة تربط المارة بعضهم ببعض . ولهذا يصعب عليه التنبؤ بما يمكن أن يحدث من هؤلاء الأفراد . والسبب في ذلك أن كل فرد يتجه لتحقيق غرض خاص . وتعدد الأغراض لا تتأتى معه وحدة العناصر ؛ ولكن اذا اتحد غرض هؤلاء الأفراد أمكن النظر اليهم كجماعة . فاذا تحول هؤلاء الناس مذعورين في اتجاه معين ظهر بينهم نوع ضعيف من الوحدة ، نصفه بالضعف لأنه سطحي مؤقت ، سريع التكون سريع الزوال . واذا رأينا في الشارع جمعا من الناس يسير أفراده في اتجاه واحد ، أو يقومون بسلوك واحد حكمنا بوحدة الجماعة . فقد يكونون متجهين نحو متجر يبيع سلعا جيدة بثمن زهيد . وقد يكونون متجهين لرؤية حادث نشأ من تصادم مثلا أو غير ذلك .

وتعتبر الجماعة قوية أو ضعيفة بمقدار ما بين أفرادها من روابط داخلية ، وبمقدار اتحاد الغرض الذى يرمى اليه هؤلاء الأفراد . فالجماعة التى تكون حزبا سياسيا ، أو نقابة عمالية ، أو ناديا لخريجى معهد من المعاهد تتصف بوجود الروابط بين أفرادها ، وتتصف بوحدة أغراضها . وبقدر متانة الروابط الداخلية ، ووضوح أغراض الجماعة ، ونشاط كل فرد لتحقيق هذه الأغراض ، يكون اعتبارنا لمبلغ قوة هذه الجماعة . والجماعة القوية يمكن التنبؤ بسلوكها أو بسلوك أفرادها في ظروف معينة . فاذا اعتدى شخص على سمعة الحزب أمام أحد أعضائه ، فالنتيجة الحتمية أن هذا العضو يغضب ويدافع ، ويقوم فى الغالب بعمل ايجابى للدفاع أو للانتقام .

كذلك الشخصية تعتبر قوية اذا ارتبطت عناصرها ارتباطات قوية ، واذا اتجهت لتحقيق غرض واحد ، أو غرض أساسى فى الحياة ؛ هذا الترابط وهذه الوحدة فى عناصر الشخصية وأغراضها ، يسمى — كما قلنا — تكامل الشخصية . والتكامل هنا شبيه بالتكامل المعروف فى العلوم

الرياضية فالتكامل هو جمع وحدات صغيرة كبيرة العدد لتتكون منها وحدة كبيرة . وقد يحدث تعارض بين بعض النزعات وبعضها الآخر عند الشخص الواحد . فقد يتنازع الفرد ميله للمحافظة على حياته ، وجهاده للدفاع عن كرامته . وقد يضحى بأحد هذين في سبيل الآخر . وقد يتردد بينهما زمنا طويلا ، تدفعه النزعات للمحافظة على كرامته ، ويمنعه حب الحياة ، فيتردد بين الدفع والمنع الى أن يفصل في الأمر . ويشبه انقسام النزعات بعضها على بعض ما يحدث بين أفراد جماعة ما من انقسام في الرأي ، ومن اختلاف في الوجة ، وما قد يتبع هذا الاختلاف من ائتلاف مؤقت أو دائم . وإذا حدث اختلاف بين أفراد جماعة في مناقشة ما فانه يحسن بهم أن يحددوا أهدافهم ويوضحوها في ذهن كل فرد ، ويخضعوا المناقشة لهذه الأهداف الموحدة ، وبهذا تزول عادة الاختلافات الفردية الشخصية الصغيرة . كذلك الفرد اذا وقع في نفسه تردد واختلاف ، فانه يمكنه اذا نظر الى نزعاته المتعارضة نظرة موضوعية مجردة أن يزيل الخلاف في ضوء ما رسم لنفسه من أهداف . فالشخص الذي يجد نفسه أمام طريقتين أحدهما يحقق له كسبا ماديا ولا يتحقق معه مجد أدبي ، والطريق الآخر يحقق له مجدا أدبيا مع شيء من التضحية المادية ، فقد يتردد بين اتخاذ أحد الطريقتين دون الآخر ، وبعد قليل من التردد قد يتخذ وجهته على أساس هدف واضح يضعه لنفسه . والتعارض الذي يحدث بين النزعات قد يستمر ، وتكون نتيجته ضعفا في الشخصية ، مثلها في ذلك مثل الجماعة التي يتنازدا أفرادها فتعتبر جماعة ضعيفة ، ويضيع مجهود أفرادها في عراك داخلي ، وفي محاولات للتغلب على هذا الصراع . كذلك الشخصية غير المتكاملة التي تتعارض اتجاهات نزعاتها يضيع جزء كبير من جهودها في محاولة التوفيق بين هذه النزعات . وفي كثير من الأحيان يبلغ درجة لا يتأتى معها هذا التوفيق ، فتظل الشخصية هزيلة منحلة .

عاطفة اعتبار الذات وتكامل الشخصية :

إذا حدث صراع نفسى بين عدد من النزعات ففي العادة تكون

هناك محاولة للبت في هذا الصراع ، وتستلزم هذه المحاولة جهدا كان من الممكن أن يصرف في الخارج بطريقة منتجة ، بدلا من أن يصرف في الداخل بطريقة لا يظهر أثرها . لنفرض على سبيل التبسيط أن نزاعا حدث بين نزعتين اثنتين مثلا ، فإن المرء يتردد بينهما ترددا يطول أمده أو يقصر على حسب موقفه من النزعتين . ولا يصل المرء الى حالة سكون أو استقرار الا بعد اختفاء احدى النزعتين أو كليهما . ولنفرض على سبيل التبسيط أيضا أن شخصا لديه حاجة ملحة الى النقود ، وأن صديقا له أعطاه نقودا ليسلمها لشخص ثالث ، فانه يتخذ طريقا من الطرق الثلاثة الآتية :

أولا : يسلم النقود لصاحبها بغير تردد .

ثانيا : يأخذ النقود لنفسه بغير تردد ولا يسلمها ، أو يؤجل تسليمها الى ما بعد قضاء حاجته عندما تتوفر لديه نقود .

ثالثا : يحدث صراع تقع فيه نفسه بين الرغبة في قضاء حاجته ، والرغبة في أن يكون أمينا . أى أن الصراع يقع بين نزعتين تجتذبانه في اتجاهين مختلفين . فأحد الاتجاهين أن يكون أمينا . والاتجاه الآخر ألا يكون أمينا وينتج عن هذا الصراع تردد ثم تغلب لاحدى النزعتين على الأخرى . فان سلم النقود الى صاحبها ، فهذا لأن فكرته عن نفسه من حيث الأمانة فكرة لا يزعجها وصول النقود الى يده . وفكرته عن نفسه في هذه الحالة توجه سلوكه وجهة معينة يرتضيها لنفسه . وأما اذا أخذ النقود لنفسه فهذا لأن فكرته عن نفسه من حيث الأمانة فكرة ضعيفة يسهل تزعزعها . وأما حدوث الصراع فمعناه وجود قوتين متقاربتين يسمح لهما بالوقوف وجها لوجه . ويكون الحسم في الموقف برجوع المرء الى فكرته عن نفسه ، بأن يقول الشخص لنفسه : ان هذا لا يليق ، أو ان هذا لا يتناسب مع كرامتى ، أو غير ذلك من العبارات التى تدل على تقديره لنفسه على مستوى معين . واذا حسم الشخص موقفه في اتجاه تحقيق الأمانة اعتبر نفسه قوى الارادة ، وبالعكس يراه الناس ضعيف الارادة اذا اتجه في الاتجاه الآخر .

نلاحظ في هذا المثال ان لدينا نزعتين ، احدهما خلقية ، والثانية غريزية والفصل بينهما يرجع الى الفكرة عن النفس ، وهذه الفكرة عن النفس تعمل صريحة في حالة التردد والنزاع ، ولكنها تعمل بطريقة ضمنية في غير هذه الحالة .

والعاطفة التي مركزها فكرة المرء عن نفسه — كما قلنا — عاطفة اعتبار الذات . وهي التي تستثار فيشعر الانسان بالاستياء من نفسه ، ان قام بأمر لا يرتضيه لنفسه ، ويشعر بالرضا عن نفسه اذا حقق لها ما يتفق وفكرته عنها .

وينظر « مكدوجل » الى عاطفة اعتبار الذات على انها المنظم الأساسي للسلوك ، أو القائد الأعلى لبقية النزعات . وهي التي تتوقف عليها قوة الشخصية ، ووحدة اتجاهاتها ، وتناسق أفعالها ، وتكامل نزعاتها ، واتزان تصرفاتها . ومثل عاطفة اعتبار الذات كمثال رئيس الحزب ، أو رئيس الجمعية ، أو قائد الجيش . فهو المرجع ، وهو الذي يتوقف عليه تنظيم الجماعة ، وقيامها بتحقيق أغراضها دون ضياع الجهد والوقت .

وكما أن الجند ينظمون على شكل فرق ومجموعات ، وتخضع كل هذه لقائد أعلى ينظم اتجاهاتها ، كذلك النزعات الفطرية وعناصرها الشخصية المختلفة تتجمع في شكل عواطف ومجتمعات ، وتخضع كل هذه لقيادة عاطفة اعتبار الذات .

ولا تخرج عاطفة اعتبار الذات عن كونها العاطفة التي مركزها فكرة المرء عن نفسه ، ولهذا فانها تنتظم تحتها بقية العواطف الأخرى . فتنظم العواطف السائدة على غيرها ، وتنظم كذلك عاطفة احترام الذات . فالذي تسيطر عليه عاطفة حب المال يرى أن الاطمئنان واحترام الذات مرتبطان بالمال ، وبذلك يكون حب المال خاضعا لفكرته عن نفسه كشخص محترم مطمئن . ونجد أن اختيارنا لأصدقائنا يرتبط بعاطفة اعتبار الذات . فأنا أختار لنفسى من الأصدقاء من أشعر أنه يليق بي أن أصادقه . كذلك أختار من الصحف اليومية ما أراه جديرا بي وأترك ما عداه . واتجاهات

انساوك كلها — من اختيار المهنة ، واختيار الزوجة ، ونوع التسلية والقراءات والأصدقاء ، وغير ذلك — تتحدد عادة بفكرة يرتضيها المرء لنفسه وأحياناً تندمج هذه الفكرة اندماجاً يكاد يكون تاماً بعاطفة قوية كالوطنية ، أو انقاذ الانسانية ، أو اتجاه ديني ، أو غير ذلك . وفي هذه الحالات تبلغ قوة الشخصية مبلغاً واضحاً .

كيف تتكون لدى المرء فكرته عن نفسه ؟

ليس من السهل على الشخص أن يتتبع الطريق الذي قطعه حتى دون فكرته عن نفسه . ولكن نلاحظ أن الشخص كثير التجارب ، الذي تتعدد اتصالاته بالأشياء وبالناس ، يدرك نفسه ادراكاً واضحاً . فالشخص الانجليزي الذي لم يخرج طيلة حياته من انجلترا يرى نفسه بصورة غير الصورة التي يرى نفسه بها انجليزي آخر تنقل في مختلف الممالك ، واتصل بمختلف الناس اتصالاً فيه أخذ وعطاء . فربما تجد الانجليزي الأول على شيء من الغرور ، أما الثاني فقد لا تجده كذلك . والطفل كثير الأصدقاء الذي يضرب ويضرب ، يأخذ ويعطى ، ويتفاعل مع غيره على قدم المساواة ، تجده مدركاً لمقدار نفسه بالنسبة لغيره ادراكاً أوضح من الطفل الذي يعيش منعزلاً مع والديه ، بعيداً عن الاختلاط بالأطفال الآخرين ، ويرى بعض الآباء أن التربية المنعزلة تفضل التربية المختلطة ، ففي التربية المنعزلة — حسب رأيهم — مجال لحماية الطفل من التأثير بالأخلاق السيئة التي يدعون أن الأطفال الآخرين يتصفون بها ، ولكن هب أن طفلاً سمع من زملائه بعض ألفاظ السباب ، ثم حاول كالعادة أن يستعمل هذه الألفاظ داخل البيت ، فإن واجب الأب أن يفهمه أن في استعمال هذه الألفاظ شيئاً من عدم اللياقة . في هذه الحالة سمع الطفل هذه الألفاظ وتعلمها ، واستعملها بين زملائه ، ووجد استنكاراً لها من والديه ، فإذا كان والداه لا يستعملان هذه الألفاظ تحت أي ظرف من الظروف ، فإن الطفل لا يحتمل أن يعود إلى استعمالها . فإذا تكرر الموقف فإنه يلجأ إلى السب . وإن راودته نفسه على ذلك فقد يقول لنفسه : انه لا يليق بمثله أن يستعمل هذه

الألفاظ . فكأن الخبرة الغنية التي تعامل فيها مع أصدقائه ومع والديه ، أدت الى أن يكسب خبرة ، وأن يقدر قيمة الخبرة ، وأن يقدر لنفسه قيمة يتوقف عليها احجامة عن السب رغم معرفته له . ونعرف أطفالا يلجأون الى السب ، ولا يرون في ذلك أى غضاضة ، بل يشعرون بشيء من اشباع النفس والرضا عنها لكثرة ما صبوه على من أمامهم من الشتائم . وهؤلاء يغلب أن يكونوا من بيوت يكثر فيها استعمال السب ، أو على الأقل لا يمنعون أطفالهم من استعماله ، ففكرة هؤلاء عن أنفسهم يرضيها استعمال السب مع الآخرين .

معنى ما تقدم أن فكرة المرء عن نفسه تكون غنية بحسب تنوع خبراتها العملية ، ولهذا فإن الأشخاص العمليين — الذين يعملون في حرف يدوية ، أو مشروعات عملية ، أو تجارب معملية أو ما شابه ذلك — أكثر تقديرا لمقدرات أنفسهم من الأشخاص النظريين القليلي الخبرة العملية وربما تجد الأشخاص النظريين يحسنون الكلام أو يحسنون فهم ما يقرأون ، ولكننا نجد من بينهم عادة المغرورين الذين يقدرون أنفسهم فوق قدرها ، أو أولئك الذين يقدرون أنفسهم أقل من حقيقتها . ذلك لأن الاحتكاك العملي بالأشياء وبالأشخاص يعين على تقدير الانسان نفسه بالنسبة لغيره التقدير الصحيح . وقد عرف أحدهم العلم قائلا : « العلم ما علمك ما أنت ممن معك » ، ويقصد به أن العلم الصحيح هو الذى يعلم الانسان موضعه بالنسبة لغيره تعليما صحيحا . وقال أديب انجليزى كبير فى احدى المناسبات : ان الذين لا يعرفون الا انجلترا لا يعرفون حتى انجلترا نفسها . ويقصد بذلك أن الانجليزى عليه أن يعرف انجلترا وغيرها معرفة حقيقية ، حتى يمكنه أن يفهم انجلترا بالنسبة لغيرها ، وقال بعضهم : « من لا يعرف الا نفسه لا يعرف حتى نفسه » ، وهذا قول فيه شيء من مبالغة ، لأنه لا يوجد شخص تقتصر معرفته على نفسه ، وان وجد — وهذا غير معقول — فانه لا يعرف حتى نفسه ، والشخص الذى لا يعرف نفسه على الاطلاق ، شخص لا وجود له . ويمكننا بالنظر الى حياة الأطفال فى مختلف المراحل ، أن نرسم صورة

تقريبية لطريقة تكون فكرة المرء عن نفسه . فالطفل في الأشهر الأولى يستقبل احساسات مختلفة . بعضها عن طريق السطح الخارجى للجسم ، وبعضها من الأحشاء الداخلية وهذه الاحساسات يتصف بعضها باللذة فى درجات مختلفة وبعضها بالألم فى درجات مختلفة . وهذه الادراكات الحسية المختلفة يشعر بها أول الأمر بصورة عامة غامضة لا تميز فيها . ونجد أن الطفل ينفعل لها ، ويعبر عن انفعاله بكل جسمه تقريبا . فان بكى من الجوع فان يديه ورجليه وكل جزء من أجزاء جسمه يتحرك مع هذا البكاء ، واذا ضحك مسرورا فانه يبدو كما لو كان يضحك بكل جسمه . فالادراكات الحسية الجسمية المختلفة تبدو له فى الغالب مختلطة بعضها ببعض . وكذلك ودوده وحركاته تبدو مختلطة لا تميز فيها . ويحدث مع النمو شئ من التميز . ويبدأ يشعر بأن مصادر الادراكات الحسية مجتمعة فى شئ واحد وهو جسمه . ونجد فى المراحل الأولى أن الطفل يعامل بعض أعضاء جسمه كرجله مثلا كما لو كانت أشياء غريبة عنه غير متصلة به ، ثم يبدأ يشعر أن لجسمه وحدة ، وأن هذه الوحدة هى مصدر الادراكات الحسية المختلفة ، فهذا جوع ، وذاك عطش ، وتلك وخزة ابرة . وبهذا نجد تميزا مع توحيد . أى أن العناصر تميزت فى ادراكها ، وتجمعت فى وحدتها المتعلقة بجسمه . ويشعر الطفل بأن له جسما وأن هذا الجسم مصدر لخبرة غنية العناصر متعددة النواحي . أى أنه يبدأ يشعر بكيانه . ومما يعاونه على ذلك أنه يسمع اسما يتكرر صوته فى أذنه ، ويلبى النداء لهذا الاسم فيجد ابتساما ممن حوله . ويدرك بعد مدة أن هذا الاسم ملك له ويميزه عن غيره . معنى هذا أن وحدة الاسم وتميزه عن الأصوات الأخرى ، ووحدة الجسم وتميزه عن الجسوم الأخرى من العوامل الهامة فى تكوين فكرة الطفل الأولى عن ذاته .

وجسم الطفل يكون مصدرا للحركة ، فهو يؤثر كما يتأثر ، فيقذف بالأشياء ، ويعض ثدى أمه فتصرخ ، ويستمتع لهذا الصراخ تبعا لعض الثدي . وتكرر هذا يؤدي الى شعوره بمقدرته على احداث حدث .

فالطفل بنشاطه يحدث تغييرات في الأشياء وفي الناس ، ويدرك صلة نشاطه بهذه التغييرات . وكلما كان التغير كبيرا مؤثرا ، كانت فكرته عن نفسه كبيرة . وفي الوقت الذي يتحرك فيه وينشط ، ويعرض ويقذف ، ويدفع ويجذب ، يجد أن حوله كائنات تقوم بمثل هذا . فوالده يحدث آثارا أشد، والقطعة تحدث نوعا من الآثار لا يقدر هو على أحداث مثله . وهكذا نجد أن الحركة سواء في ذلك حركته ، أو حركة الناس حوله ، أو حركة الأشياء واللعب ، كل هذه تحدث فيه أثرا ، وتعطيه فكرة عن مقدرته بالقياس الى مقدره غيره . لهذا كان النشاط المتعدد النواحي وسيلة طيبة لفهم الأشخاص والأشياء ، ووسيلة طيبة لفهم الذات . والطفل في أثناء نشاطه ونشاط من حوله يبدأ يميز بين نوعين من الكائنات الحية والكائنات غير الحية . ويسلك كما لو كان يضع نفسه في موضع محدد ، وهو كائن حي يشبه أمه وأباه في كونه انسانا ، ويختلف عنهما في كونه صغيرا ضعيفا ، ويتميز بجسم له كيان ثابت نوعا ، وباسم ثابت كذلك يميزه عن غيره من الناس . وهذا التحديد مع ما يضاف اليه من معرفة خصائص هذا الجسم ، من حيث كونه مصدرا للادراكات ، ومصدرا للنشاط ، هو مرحلة أولى في تكوين فكرة الذات . ويلاحظ أننا وصلنا الى هذا على أساس واحد ، هو النشاط والتفاعل مع البيئة بمختلف عناصرها . وكلما اتسع هذا النشاط وازدادت عناصره ساعد هذا على فهم المرء لنفسه بالنسبة لغيره ، وعلى فهم غيره كذلك . وموقف الانسان من نفسه كموقف العالم من موضوع بحثه ، فكلما زادت تجاربه كانت ملاحظاته أقرب الى الدقة ، وكانت نتائجها أقرب الى الحقيقة . كذلك الانسان قد يمارس لعب الشطرنج مع شخص معين فيتغلب عليه ، ومع آخر فيغلب على أمره . فيقدر نفسه في هذه الناحية على مستوى يقع بين مستوى الشخصين . وقد يحاول أن يعوم مسافة طويلة فلا ينجح ، بينما ينجح في مسافة أقصر ، وهذا يعطيه عن نفسه فكرة تقريبية على ضوء هذه التجارب . وكلما تعددت تجاربه قربت فكرته عن

نفسه من الحقيقة . ويسمى علماء النفس تكوين الذات بهذه الطريقة بالذات التجريبية (١) .

يضاف الى كل ما تقدم أن هناك استعدادات فطرية تساعد على قيام الطفل بعقد صلة بينه وبين غيره ، وهذه هي الاستعدادات الفطرية العامة الاجتماعية ، وأهمها التقليد والمشاركة الوجدانية . فعن طريق التقليد يقوم الطفل بالأفعال التي يقوم بها والده ، والتي تصدر من الكبار المحيطين به . وبهذا يشعر أنه ارتفع الى مستواهم من حيث المقدرة . فاذا كان الطفل ينطق بما ينطق به أبواه ، ويتناول غذاءه بغير مساعدة كما يفعل أبواه ، فإنه يرى نفسه على تقدير أعلى من التقدير السابق بسبب كسبه لمقدرات جديدة . واذا وجد نفسه غير قادر على اتقان الحركات التي تصدر من والديه ، فإن هذا يساعد على فهم مبلغ قدرته ومبلغ قصوره بالنسبة لقدرة والديه . وبالجملـة نجد أن التقليد مجال طيب لنمو الذات ، وفهم الطفل نفسه بالنسبة الى غيره ومن حوله .

وكذلك المشاركة الوجدانية تعطي الطفل مجالا لفهم الحياة النفسية لدى الغير . فالطفل يتسم لابتسام من حوله ، ويبكى لبكائهم ، ويضجر لضجرهم . وكذلك يضجر من حوله لضجره ، ويتألمون أحيانا لألمه . ويكون في الالتقاط المباشر للحالات النفسية الانفعالية — عن طريق المشاركة الوجدانية — فرصة طيبة لنمو الذات ، وادراك حالاتها وحالات غيرها .

وليست للذات قيمة مجردة في ذاتها ؛ وانما يكون مقياس قيمة الذات بمقدار تحققها في الخارج . فلا يكفي أن يكون الشخص عالما في ذاته . بل لابد لكي يحترم نفسه كعالم ، ولكي يحترمه الناس كعالم أن يشعر أن الناس يتأثرون تأثرا فعليا بعلمه هذا . وبهذا يرى نفسه تنعكس في الخارج ؛ وبعبارة أخرى يرى آثار نفسه وقوتها حوله . وبقدر اتساع ميدان هذا الأثر وتعدد نواحيه ، يكون شعوره بأهمية نفسه . فكأن نمو الذات نتيجة من نتائج تفاعلها مع عناصر البيئة ، ونتيجة كذلك من نتائج تحققها في الخارج .

(١) Empirical self.

ونلاحظ أن نمو الذات يدفع بصاحبها الى تحقيقها في الخارج . لنضرب مثالا آخر : قد يجد التلميذ المتوسط في النواحي الدراسية نفسه عاديا قليل القيمة في مدرسة عادية . فان ذهب الى مدرسة أخرى فيها مجالات لبروز النواحي الرياضية والاجتماعية ، فانه قد يتفوق في احدى هذه النواحي ، فقد يكون عضوا ماهرا في فريق كرة القدم ، ويكون نشاطه في هذه الناحية مصدر الاعجاب من زملائه . وقد تكون مقدرته عاملا في تفوق مدرسته على غيرها من المدارس في مباريات الكرة . وبذلك يجد نفسه قادرا على اسداء خدمات لمدرسته ، وقادرا على احداث أثر في زملائه ومدرسيه . وتصبح له شهرة يشعر معها بنمو ذاته ، ويشعر في كل هذا بتحقيق ذاته تحقيقا فعليا . كذلك الأرملة الغنية قد يستولى عليها الضجر واحتقار الذات ، الى أن تتمكن من الاشتراك في عمل اجتماعي يفيد عددا كبيرا من الناس . فنبداً اذ ذاك تشعر بقيمة ذاتها ، اذ أنها تراها تنعكس في الخارج بين من أفادوا من خدمتها . والنشاط الجمعي يفوق النشاط الفردي على وجه العموم في كل من عمليتي نمو الذات وتحققها .

نرى من كل ما تقدم أن نمو الذات نتيجة لنشاط الفرد مع مختلف عناصر البيئة . وأن قيمة الذات في نظر صاحبها ، وفي نظر من حوله ، تتوقف على مقدار تحققها تحققا عمليا في الخارج .

ويرى بعض علماء النفس أن العامل الأساسي لنمو الذات ولتكاملي الشخصية هو عامل « الذاكرة » . وقد فضلنا ألا نشير الى هذه الناحية فيما تقدم ، لأن المقصود هو أثر الخبرة ، فكل خبرة تمر على الانسان تؤثر في خبراته التالية بحكم ما تتركه الخبرة الأولى من أثر . فالتلميذ الذي يتعلم الجمع والطرح ، يسهل عليه بفضل هذه الخبرة أن يتعلم الضرب والقسمة . ويرى بعض علماء النفس — خاصة الفرنسيين منهم — أن « الذاكرة » تطلق على الأثر بمعناه الواسع . وكل ما يمكننا أن نقوله ، ان قابلية العقل للتأثر بالحوادث وللاحتفاظ بهذه الآثار « في صورة ما »

هى التى يرجع اليها نمو الذات وتكامل الشخصية ، وكذلك تكامل الخبرات الادراكية وما الى ذلك .

مراحل التكوين الخلقى :

يمكننا أن نتصور الناس فى مستويات بعضها فوق بعض من حيث التكوين الخلقى . فبعض الناس يتأثر فى سلوكه بعوامل اللذة والألم ، فيبتعد عن كل ما يسبب مضايقة جسمية ، ويتجه الى كل ما يشعره باللذة ويقوم بهذا بغض النظر عن رأى الناس فيه ، ومن رضائهم عنه أو سخطهم عليه . وبغض النظر عما يمكن أن يلحقه من ثواب أو عقاب فى سبيل تحقيق لذاته . ويشبه هذا النوع الطفل الصغير الذى يستمرىء السوائل الحلوة ويأثف ما عداها ، ويبكى من الألم ، ويسر من اللذة . فان امتدت يده الى جسم محرق فان يده لا تمتد اليه بعد ذلك تجنباً للألم ، وهكذا ينجذب نحو مصادر اللذة ويتبعد عن مصادر الألم . فاذا كبر الطفل نجده يتقدم نحو أشياء يحتمل أن تكون مصدراً للذة فيجد عقاباً مؤلماً يوقع عليه ، ويجد نفسه أحياناً مبتعداً عن مصادر الألم فيجد اغراءً بالثواب اذا اتجه اليها . وهذا نوع جديد من التنظيم فى سلوك الطفل يزيد حياته تعقيداً . فبعض الأشياء تثير الألم ولكنه ينتجها اليها لما تتضمنه من ثواب . وهذا الموقف يثير نوعاً من التردد ، ويستلزم الحسم فى اتجاه دون الآخر . وهذا يمثل الصراع فى أبسط صورته ، كما أنه يمثل مرحلة أرقى من المرحلة السابقة فى تكوين الخلق ، فبعد أن كان الشخص ينتج متأثراً باللذة والألم الطبيعيين ، أصبح من المحتمل له أن ينتج نحو الألم ، وأن يتعد عن اللذة متأثراً فى ذلك بما قد يقع من ثواب أو عقاب من الوالدين أو من مصادر السلطة المحيطة به .

وهناك مرحلة أرقى من المرحلتين السابقتين ، يتأثر فيهما الفرد بما يصدر من السلطة المحيطة من المدح أو الذم ، أو من علامات الرضا أو السخط . فالطفل عندما يكبر قليلاً ، ويكون فى السن بين السادسة والثانية عشرة تجده يهتم لرضاء والديه أو عدم رضائهما . وعلامات الرضا والسخط

تشبه الثواب والعقاب ، الا أن الرضا والسخط يتطلبان مستوى ادراكيا أرقى مما يتطلبه الثواب والعقاب . فقد يكون الطفل مشتاقا لتناول الحلوى في حضرة الضيوف ، غير أن والدته كانت تظهر عدم رضائها عنه اذا أظهر هذه الرغبة وتظهر الرضا اذا أخفاها . وبهذا يتحكم رضاء الأم وسخطها في اتجاه سلوك الطفل في موقف معين . ويتحكم الرضا والسخط كذلك في تعليم الطفل ضبط نفسه في هذه المواقف .

وبعد سن الثانية عشرة ، يكون الطفل قد خرج الى دور جديد . ويكون قد بدأ يهتم برأى زملائه وأصدقائه ، فيصبح لرضا الجماعة ولسخطها ولسخرتها آثار قوية في توجيه السلوك . فبعد أن كان الطفل يرتدى ملابس معينة ارضاء لأمه ، أصبح يرفض هذه الملابس لأنها تثير استهزاء زملائه منه . وتعتبر هذه المرحلة أرقى من السابقة ، اذ تحرر الفرد فيها من أثر سلطة فردية وهي سلطة الوالد أو من يحل محله ، ووقع تحت سلطة جمعية لا تتركز في فرد معين . والمراهق في هذه المرحلة يعتبر شجاعا اذا تحرر من سلطة فردية ، ووقع تحت سلطة جمعية . ويعتبر بين زملائه جبانا ان كان على عكس ذلك .

وفي هذه المرحلة يشتد الصراع وتتعدد الاتجاهات ، فيقع الناشئ بين ملذاته ومغرياته من ناحية ، وتأثره بسلطة والديه وهو ما زال في حاجة اليهما من ناحية ثانية ، وتأثره بسلطة الجماعة التي يشعر شعورا قويا بحاجته للانتماء اليها من ناحية ثالثة .

من هذا نرى أن لدينا الى الآن أربع مستويات . المستوى الأول يتأثر فيه الفرد باللذة والألم الطبيعيين الصادرين من الأشياء . والمستوى الثاني يتأثر فيه الفرد بما يوقعه عليه الوالدان من ثواب أو عقاب . والمستوى الثالث يتأثر فيه الفرد بما يظهره الوالدان من عبارات المدح والذم ، أو علامات الرضا والسخط . أما المستوى الرابع فان الفرد يتأثر فيه بما تظهره الجماعة من عبارات المدح والذم ، أو علامات الرضا والسخط . ونجد فيمن نعرفهم من الناس من يتفق سلوكهم في مجموعه مع هذه المستويات . فهناك الذي يسعى وراء لذة الأكل والشرب وما الى ذلك .

ويمتنع عن كل ما يضايقه أو يؤلمه . وهذا الشخص يعامل نفسه كما لو كان يعامل طفلا صغيرا مدللا ، يصدق عليه ما يسره ، ويمنع عنه ما يؤلمه . ونجد كذلك فيمن نعرفهم من يقفون في المستوى الثاني ، فلا يمنعهم عن الاغراق في ملذات الأكل والشرب الا ما قد يقع عليهم من عقاب ، ويكون سلوكهم موجها عادة بفعل الرغبة في الثواب أو الخوف من العقاب . وبعض الناس لا يتبعون قواعد الدين الا لأمر واحد فقط ، وهو الخوف من العقاب المادى ، والرغبة في الثواب المادى ، وكذلك نجد أناسا يتوقف سلوكهم على عبارات الرضا وعبارات المدح التى تصدر لهم من أصحاب السلطة عليهم . ونجدهم يقومون ببعض الأعمال ويحجمون عن بعض الأعمال الأخرى لكى يسمعوا عبارة مدح أو يجتنبوا عبارة ذم من أصحاب السلطة . ثم نجد كذلك الذى يسترشد في عمله برضاء الناس أو عدم رضائهم .

غير أن هناك مستوى أرقى من هذه المستويات جميعا ، وهو الذى يعمل فيه الفرد بناء على فكرة بغض النظر عن رضاء الناس أو سخطهم ، أو رضاء السلطة أو سخطها ، وبغض النظر عن الثواب أو العقاب أو عن اللذة أو الألم . وفي هذا المستوى يصل المرء الى أعلى مراحل التكامل الخلقى . ويصل اليه عادة بعد أن يكون قد مر في جميع المراحل السابقة . دون أن يقف ثابتا في واحدة منها . ويحتاج الوصول الى هذه المرحلة الى تأمل والى تحليل والى تجريد للأفكار .

ولكى نفهم فكرة التجريد نذكر ما يحدث من ميل التلاميذ الى معرفة قصص أبطال التاريخ . ونتيجة هذه الدراسة هى تحليل صفاتهم وانتزاعها وتجميعها . فبدل أن يصبح المثل الأعلى شخصية معينة فيها أوجه كمال وأوجه نقص ، يصبح المثل الأعلى صورة معنوية مجردة تهدى الشخص في تصرفاته وأعماله .

وسبق أن بينا فى تطور العواطف ، أن هناك عواطف فردية وأخرى جمعية ، وأن هناك عواطف حسية وأخرى معنوية . فلكى يصل الشخص الى العواطف المعنوية يمر بمراحل العواطف الفردية والجمعية ، ويمر بمراحل التحليل والتجريد .

وعلينا أن نبين هنا الدور الذي تلعبه عاطفة اعتبار الذات في مراحل التكوين الخلقى . ففكرة المرء عن نفسه في أرقى المستويات ، تكون غير مقيدة برضاء المجتمع أو سخطه ، أو أثر السلطة أو غير ذلك . فالأنبياء والمصلحون في كفاحهم يلقون عنتنا كثيرا من أهلهم وذويهم والمجتمع الذي ينتمون إليه ، ولكنهم يتجهون بناء على فكرة ارتضوها لأنفسهم عن أنفسهم ، ويهون في سبيل تحقيقها الاضطهاد والتشهير والتعذيب وما الى ذلك . فقد هان على نفس « سقراط » أن يموت دون أن يتنازل عن نشر تعاليمه . وما حدث لـ « سقراط » حدث مثله لـ « جاليليو » وأمثاله في القرون الوسطى ، فقد طابق « جاليليو » بين نفسه والفكرة العلمية التي كشف عنها ، فلما طلب منه أن ينكرها أصر على رأيه وتحمل في سبيل ذلك عنتنا كبيرا .

ونجد في المرحلة السابقة لذلك أن فكرة المرء عن نفسه تنشأ عن انعكاس ما يرضى به المجتمع . فالسيدة ترتدى الزي الشائع حتى تبدو كغيرها مهما كلفها هذا ، وقل أن تجد سيدة تختار ثيابها بناء على فكرة خاصة بها ، وبالرغم من سخرية المجتمع من زيها . وهذا الذي نجده بالنسبة للباس المرأة نجد أمثاله في كثير من أنواع السلوك ، فالتلميذ في المدرسة الثانوية قد يأتي عملا من الأعمال لأن اخوانه يقومون بنفس العمل ؛ لا لأنه مقتنع بصحته . والجندي في الجيش قد تخطر على باله أفكار ضد الحرب ، غير أنه سرعان ما يطردها ويحارب كما يفعل زملاؤه ، متأثرا في ذلك بضرورة مجاراتهم حتى لا يحتقروه . وفكرة المرء عن نفسه في هذه الأحوال ترضى احترام الناس أو على الأقل رضاهم ، وتتجنب سخطهم وسخريتهم وبهذا تتركز في فكرة المرء عن نفسه تلك الاتجاهات التي يرضى عنها المجتمع .

أما المراحل السابقة لذلك ففكرة المرء فيها تتوقف على العلاقة بين الشخص والسلطة ؛ فكل ما يهم الشخص هو رضاء صاحب هذه السلطة . ويرضى المرء عن نفسه تبعا لرضاء السلطة عنه ، ويغضب من نفسه على أثر

غضبها منه . والانتقال من مرحلة الى أخرى يتطلب تحرر الذات من ميدان ضيق ، واندماجها في ميدان أوسع . فهي تتحرر من أثر السلطة الفردية لتندمج في سلطة الجماعة ، وتحرر من سلطة الجماعة لتندمج في سلطة معنوية تشمل هذه الجماعة، وتشمل غيرها .

ويمكن بناء على ما تقدم أن نضع مقياسا للنضج الخلقى ، ويتبع هذا المقياس في تدرجه المراحل الخمس السابقة . وأولى هذه المراحل مرحلة الاهتمام باللذة الجسمية دون غيرها . وأعلى هذه المراحل مرحلة الاهتمام بتحقيق المثل العليا ، وهذه لا يصل إليها الا أفراد قليلون .

فكرة الإرادة :

كان يظن قديما أن للانسان ملكة تسمى « ملكة الإرادة » . فاذا كانت هذه الملكة ضعيفة ، كان صاحبها خاضعا لسلطان غيره ولأثر المغريات الخارجية . واذا كانت هذه الملكة قوية ، تمكن صاحبها بوساطتها من مقاومة أثر المغريات وأثر الأشخاص . وكان يظن كذلك أن هذه الملكة يمكن تقويتها بتمرينات وأساليب من شأنها أن يحرم الانسان نفسه من بعض ملذاته ، أو من بعض حاجاته اليومية العادية . فالامتناع عن الأكل أو الكلام أو النوم من الأساليب التي كانت تعتبر أساليب ناجحة لتقوية « ملكة الإرادة » . وكان ينظر كذلك الى الاعتكاف لحفظ الدروس المملة الجافة غير المفهومة على أنه وسيلة من وسائل تقوية « ملكة الإرادة » ولكن نظرية الملكات بهذه الصورة قد أصبحت في ذمة التاريخ . ذلك لأن الحياة العقلية تعمل كوحدة ، وما يسمى ارادة ليس الا وظيفة من وظائف الحياة النفسية مجتمعة ، وتختلف في الشخص الواحد من موقف الى آخر ، فنحن لا نجد عادة الشخص القوي الإرادة في جميع المواقف . فقد يكون الشخص قوى الإرادة عند أدائه عمله ، ولكن يكاد يكون مسلوب الإرادة أمام زوجته أو أمام أطفاله .

ولكى نفهم معنى الإرادة ، نعود الى المثال الذي سبق أن فصلناه عن الرجل الذي يجد نفسه أمام تقود ليست ملكا له ، ويمكنه أن يستعملها

تسد حاجاته النفسية الطارئة القاهرة . فاذا أسلم الرجل النقود لصاحبها دون أن يفكر في سد حاجاته منها اعتبرناه قوى الإرادة . واذا تردد الرجل بين سد حاجاته وتسليم النقود وانتهى أمره بتسليمها لصاحبها اعتبرناه قوى الإرادة ، غير أننا ننظر اليه على أنه أضعف ارادة في هذه الحالة منه في الحالة الأولى . ونجد الارادة في الحالة الأخيرة تعمل بصورة صريحة ، لأن هناك جهدا واضحا يبذل في التغلب على المقاومة الحادثة بين سد الحاجات وتسليم النقود . أما الحالة الأولى فان « الارادة » تعمل فيها بطريقة ضمنية فالرجل في هذه الحالة لم يتردد ولم يقاوم ، وانما سار في اتجاه واحد وهو الاتجاه الخلقى الراقى . وسيره في هذا الاتجاه صار شبيها بالطبيعة الثابتة ، اذ لا يحتاج الشخص الى التفكير في أى الطريقتين يسير . أما الحالة التي يحسم الشخص فيها ، اتجاه قضاء حاجاته ، فاننا نعتبره عادة ضعيف الإرادة ، لأنه استسلم لنزعاته الغريزية دون أن يلبي الدواعى الخلفية العليا . ويتجه « مكدوجل » الى ربط فكرة الإرادة بفكرة تكامل الشخصية . وسبق أن بينا أن فكرة تكامل الشخصية تدور حول عاطفة اعتبار الذات . وبيننا كذلك الدور الذى تلعبه عاطفة اعتبار الذات فى حسم الصراع بين اتجاهين . ويمكن تطبيق نفس هذه الاتجاهات على حالات أخرى تكون أكثر تعقيدا من الحالة التى وردت فى المثال الذى ضربناه .

وقد كثر الجدل حول فكرة حرية الإرادة . فكان يقال ان للانسان « ارادة » تختار بين الخير والشر . فان سارت نحو الخير استحق صاحبها الثواب . وان سارت نحو الشر استحق العقاب . أما اذا كان الانسان مسيرا بعوامل أخرى فان اتجاهه نحو الرذيلة أو الشر لا يستوجب عليه العقاب . وقد وجد رأى الأخير سندا من علم النفس عندما أكد فكرة الغرائز والنزعات الفطرية . ولكن رأى الذى أثبتناه بين أن الانسان لا يقف عند مستوى الدوافع الغريزية البدائية ، وانما يرتقى فتتكون له دوافع نتيجة تكون العواطف ، ونتيجة تكامل هذه العواطف حول عاطفة رئيسية هى عاطفة اعتبار الذات . والارتقاء فى هذا الاتجاه يكون عادة فى الاتجاه الخلقى الذى يقره المجتمع بوجه عام . وقد رأينا كيف أن الإرادة تصل

الى أعلى درجات حريتها ، عندما نصل الى أعلى درجات تكامل الشخصية ، وعندما يحسم الشخص في اتجاه خلقى عال دون تفكير أو تردد ، أما اذا تردد الشخص بين اتجاه خلقى وآخر « غريزى » ، فان حرية البت عنده تكون مقيدة بهذا الصراع . فالشخص الذى قرر ألا يقرب الخمر يكون قوى الارادة اذا رأى الخمر وشم رائحتها دون أن يسيل لعابه لها ، أو يتطرق تفكيره الى احتساء أو عدم احتساء بعضها . أما الشخص الذى يقرر ألا يقرب الخمر ، ويتعد عن مواطنها خوفاً من أن يقع فى الإغراء ، فانه لا يكون فى قوة ارادته فى نفس المستوى الذى نجد فيه الشخص الأول . ونعتبر أن ارادة الشخص الأول وصلت فى هذه الناحية الى أعلى درجات الحرية . وأما الشخص الثانى فان ارادته مقيدة بعض الشيء ، بدليل الخوف من الزلل اذا وجد نفسه أمام مصدر الإغراء .

ويظن البعض خطأ أن الذى يندفع وراء تحقيق غرائزه قوى الارادة كذلك . وذلك لما يرون فى سلوكه من اصرار ، ولكن هذا تلاعب بالألفاظ . فهذا النوع الأخير يستسلم عادة لغرائزه استسلاماً ، فلا يمكننا أن نعتبره الا ضعيف الارادة .

رأى فى السعادة :

أثار موضوع السعادة تفكير الباحثين منذ القدم . فكان الانسان يرى أن هدفه فى الحياة هو الحصول على السعادة . واختلف الناس فى الوسائل المؤدية لهذا . فبعضهم رأى السعادة فى توفر ظروف خارجية كالثراء والجاه . وبعضهم — كقدماء فلاسفة الاغريق — رآها فى داخل النفس ، فقد قال أحدهم : « اذا أردت أن تبحث عن السعادة فابحث عنها فى داخل نفسك » . ومن الآراء الحديثة رأى النفعيين وعلى رأسهم « بنتام » و « جون ستيوارت مل » ، فهم يرون أن السعادة هى فى مجموع اللذات التى يتمتع بها الشخص . فالذى يتمتع بلذة الأكل والشرب ، وباللذة الجنسية وغير ذلك من اللذات ، يصبح فى نظرهم سعيداً . فكان السعادة فى نظرهم تتحقق باشباع مختلف النزعات الغريزية . ولكننا نعلم أن السعى لتحقيق لذة ، يصحبه عادة تضحية بلذة أخرى ، فالاغراق فى لذات المأكل والمشرب

والملبس ، قد يكون على حساب رعاية الأولاد ، أو على حساب الكرامة واثبات الذات . ونجد في الواقع أن الذين يغرقون في الملذات الذاتية ، يستمتعون بها وقتا محدودا ، ثم يمجونها وينتظعون لغيرها . ونجدهم في أثناء تحقيقهم للمذاتهم يقعون في صراع مع نزعاتهم النفسية الأخرى ، فالذى يفرق في الملذات الجنسية قد يتولاه في أثناء مخاطراته كثير من الخوف ، مما يجعله يقدم ويحجم ويتردد . ويترتب على اغراقه ضياع جهده في نواح كان من الممكن أن تكون أكثر امتناعا ، وأكثر دواما ، وأقوى أثرا . فتضيع عليه فرص مجد علمي أو اجتماعي . وحتى اذا كان قد تحقق له جزء منها ، فان استغراقه في هذه اللذات قد يؤدي الى هدم ما بنى .

وتحقيق اللذة تلبية لدواعي الغريزة أو الدوافع الأولى بصورة غير منظمة ، يؤدي — كما بينا — الى لذة مؤقتة ، ويؤدي الى صراع نفسى . ولا يمكن أن ننظر الى مجموع اللذات على أنه مؤد للسعادة . ذلك لأن تحقيق اللذات بصورة غير نظامية لا يمكن أن يؤدي الى حالة نفسية مستقرة ، وهى حالة السعادة . وكثيرا ما رأينا أناسا يغرقون في الخمر والميسر والمأكل والمشرب والملذات الجنسية وما الى ذلك ، ومع هذا فانهم يشكون من شقائهم ؛ بل يؤكدون أنهم انما يفعلون ذلك لتغطية آلامهم ، ومع هذا لا ينجحون . ونجد أحيانا شخصا يشعر بشيء من الألم لما يحقق بانسان آخر من البؤس ، ونجده يعطف عليه ويشعر بالسعادة كلها لازالة بعض هذا البؤس . والشعور بالسعادة هنا لا يصاحبه تحقيق لذة ذاتية . بل يصاحبه تضحية ذاتية . فكأن الحرمان من اللذة الذاتية يمكن أن يجتمع مع تحقيق السعادة المصاحبة لعمل خيري فيه تحقيق لمثل أعلى احتضنه في ذاتيته .

ولما وجد النفعيون أن الشخص قد يكون سعيدا وهو محروم من اللذات وقد يكون متلذذا وهو محروم من السعادة ، اتجهوا الى توسيع نظريتهم ، فقالوا : ان الخير هو في اسعاد أكبر عدد ممكن من الناس ، وفي اسعادهم اسعاد لمصدر الخير ، وأن الشر هو في اشقاء عدد كبير من الناس ، وفي اشقائهم اشقاء لمصدر الشر . واتجهوا كذلك الى أن السعادة لا تقتصر على

الذات السفلى من مآكل ومشرب ، وانما هي في اللذات العليا من تفكير
ومناصرة للمبادئ وغير ذلك .

ولكن نظرية النفعيين مع تماسك بعض أجزائها ، فانها ليست مستساغة
في جملتها . فالحماسة التي تقاوم دفاعا عن صغارها الى أن تموت ، لا تنشد
لذة في تصرفها ، وانما تثابر على الدفاع برغم الآلام ؛ وبرغم التضحية الى
آخر نفس من الحياة . والجندي الذي يموت راضيا في الحرب ، يموت
تحقيقا لواجب ارتضاه لنفسه ، دون أن يفكر في اسعاد نفسه تبعا
لاسعاد غيره .

ولكن يسهل علينا أن نصل الى رأى في السعادة على ضوء فكرة تكامل
الشخصية التي ذكرناها . وقبل أن ندخل في هذا نفرق بين ثلاثة مصطلحات،
وهي : اللذة والسرور والسعادة . فاللذة سطحية قصيرة العمر ، وأما السرور
فانه أكثر عمقا ، وأطول عمرا من اللذة ، وأما السعادة فانها أكثر الثلاثة عمقا
وثبوتا ، وأطولها عمرا ، فأنا أتلذذ من طعام شهى ، وأسر اذا غلبت معارضي
في مناقشة ، واذا غلبت من يتحداني في لعب الشطرنج ، ولكنني أشعر
بالسعادة اذا أديت واجبا نحو الفقراء أو المرضى ، أو نحو الوطن ، أو اذا
أديت خدمة علمية أو انسانية عالمية . من هذا نرى أن التلذذ لا ينتمى كثيرا
الى النفس أو الذات . وأما السرور فان انتماءه الى الذات يكون أكثر من
انتماء اللذة اليها . وأما السعادة ففيها تحقيق كامل للذات بمعنى شامل
فيمكنني أن أقول : ان التلذذ من طعام شهى ، ليس عزيزا على نفسي بمقدار
السرور من التغلب في مباراة رياضية . وكذلك السرور الناشئ من التغلب
في المباراة ، أقل قربا للنفس من السعادة الناشئة من اغاثة المنكوبين ، وتقديم
الخير لمستحقه ، ففي الأخير تحقيق للذاتية أكثر مما في سابقه . وفي النجاح
في المباراة بعض تحقيق الذاتية ، وأما في لذة الأكل والشرب فتحقيق الذاتية
يبدو ضئيلا أو معدوما . وتقع هذه النواحي الثلاثة في سلم متدرج بالنسبة
للإنسان الكامل . فهو يرى مبدأ اللذة مبدأ قليل الأهمية ، وان كان لا ينكره ،
ومبدأ السرور على جانب من الأهمية ، وان كان لا يغمره ، ومبدأ السعادة
أكثرها أهمية ، وأشدّها قربا من نفسه . والشخص السعيد — كما قلنا —

لا ينكر مصادر اللذة ؛ بل انه يجعلها تنتج في خدمة أهدافه ومثله العليا . فاللذة الجنسية تتحقق له عن طريق زواج شريف خال من الخوف وخال من الصراع . وكذلك تتحقق له لذات المأكل والمشرب دون توضحية بحاجات أولاده ، أو بحاجات الفقراء من حوله ، أو بسجده الخلقى أو العلمى . ومتحقق له كذلك غريزة الاستطلاع في بحث علمى ، وغريزة اثبات الذات في الكتابة والخطابة والتعليم واصلاح المجتمع ، وتتحقق له الغريزة الاجتماعية في تكوين الجمعيات التى تكافح شرور المجتمع . وبذلك يمكنه أن يعبر عن غرائزه كلها تعبيراً منظماً ، تحت قيادة أهدافه الاجتماعية والخلقية ، وتحت تأثير مثله العليا .

نلاحظ أن لدينا الآن حالتين : احدهما تتحقق فيها اللذات تبعاً لاستشارة الغرائز أو الدوافع الفطرية تحقيقاً يتم كيفما اتفق ، والأخرى تتحقق فيها اللذات عن طريق تنظيم الغرائز والدوافع أو النزعات وتوجيهها وجهات موحدة منسقة . ونلاحظ أن الحالة الأولى يحتمل معها اشباع بعض الغرائز دون الأخرى ، ويحتمل معها حدوث الصراع النفسى الذى يضيع فيه جهد كثير ، ولا تتحقق معه الهناءة النفسية منظمة ، أما الحالة الثانية فاننا نلاحظ أن الانسان يشبع غرائزه فيها بطريقة منسقة ، فالسعادة اذا لا تتنافى مع اشباع الغرائز ؛ بل تتفق مع تحقيقها كلها تحقيقاً فيه نظام وتنسيق ووحدة .

من ذلك نرى أن السعادة مرتبطة بتكامل الشخصية ، وهى نتيجة للوحدة ؛ أى التوافق التام بين نزعات الشخص وعواطفه واتجاهاته ، ووجود هذه الوحدة يضمن القضاء على القلق والصراع والخوف ، ويضمن توجيه الطاقة البشرية — ومنبعها الاستعدادات « الغريزية » — لتحقيق غرض واحد أو أغراض متشابهة يشعر معها الانسان بأنه يؤدي واجبا مرتبطاً بفكرة خاصة عن النفس ، أو بعبارة أخرى مرتبطاً بعاطفة اعتبار الذات ، فسعادة المرء اذا فى تكامل شخصيته ، وتحقيق ذاتيته ، وشقاؤه فى انحلال هذه الشخصية ، وفى ضياع الجهد فى نزاع داخلى .

ويمكننا فى ضوء ما تقدم أن نرى فى الناس تدرجاً يمثل مستوياتهم من ناحية السعادة أو الرضاء أو الارتياح أو ما شابه ذلك ، فرضاء الطفل يتم

إذا كان متمتعا بالدفء والشبع ، أو مستغرقا في نوع من اللعب والمرح ، ولكن هذا المستوى من الرضا نجده وقتيا قصير العمر ، لا يكاد يخرج عادة عن مستوى اللذة . كذلك نجد حالة الرضا عند الحيوان عادة من هذا النوع . وهناك الأشخاص الضعفاء الذين ينشدون السعادة في ارضاء لذاتهم الوقتية ، أو عمل ما تعودوا عليه مدفوعين بعباداتهم ونزعاتهم لا بمبادئ أو أفكار سامية . وأعلى من ذلك قليلا نجد الشخص الذي لا يرى السعادة الا في اسعاد أولاده ، فان لم يكن قادرا على ذلك أو ان ماتوا جميعا أصبح شقيا لا يجد السعادة في أمر آخر . هذا النوع من السعادة محدود العمر ، لأنه لا يرتبط بأفق أوسع من أفق الأسرة . ونجد أم الزوج في الشرق يتولاها الحزن والكآبة بعد زواج ابنها ، فهي سعيدة ما دام ابنها لها ، شقية ما دام ابنها لغيرها . ولكن تجد أم الزوج في انجلترا الحديثة مثلا لا تتأثر كثيرا بزواج ابنها . ذلك لأن لها نشاطا في ميادين أوسع من ميدان الأسرة ، فهي تنتمي عادة لجمعيات وأندية تجعل لها أفقا أوسع من أفق الأسرة ، ويتمكن نشاطها في هذا الأفق من الحد من نشاطها نحو ابنها أو زوجته ونجد السعادة ترتبط أحيانا لا بسعادة الأسرة فحسب ، بل تمتد الى سعادة طائفة أو اقليم أو وطن ، ونجدها أحيانا ترتبط بميدان أوسع وهو ميدان الانسانية .

فاذا ارتفعنا عن الأغراض الذاتية الشخصية ، وتجردنا من الأنانية ، علونا الى مستوى الأسرة . واذا تحررنا من التحيز للأسرة ، ارتفعنا الى مستوى الطائفة أو الاقليم ، واذا تحررنا من الفوارق الطائفية ، أو الفوارق الاقليمية ، ارتفعنا الى مستوى الوطنية . وقد نقف عند مستوى الوطنية ، فنظن أن وطننا هو خير الأوطان جميعا ، ونظن أننا أعلى نوع في الجنس البشري ، ونظن اننا جديرون بالسيطرة على العالم لتعليمه وتهذيبه وادخال المدنية في مختلف نواحيه . وقد كانت هذه النعرة العنصرية سائدة في انجلترا وفي ألمانيا ، وهناك اتجاه للقضاء على هذه النعرة الوطنية الضيقة ، أو العنصرية العمياء ، وقد أخذ القادة يتجهون الى الوحدة العالمية ، والى سلام الانسان بغض النظر عن وطنه أو عنصره أو دينه أو أسرته أو ذاتيته .

والسعيد حقا هو ذو الشخصية القوية الذى يعمل دائما لتحقيق غرض سام ، والذى لا تتعارض حاجاته ورغباته مع مصالح الانسانية . وربما كان أقرب الأمثلة لهذا هم الأنبياء الذين لم يهتموا بالمأكل أو مشرب أو ملبس ولم يشقهم الجوع أو الالهانة أو السجن ، ولم يؤثر في اتجاهاتهم كثرة الأولاد أو فقدهم اياهم ، وانما كان يسعدهم أمر واحد وهو الجهاد والسعى لتحقيق الفكرة الانسانية السامية . كذلك «ابراهيم لنكولن» كان لا يستغرق تفكيره ونشاطه الا أمر واحد وهو محو الرق .

وقد يظن أن هؤلاء الناس عاشوا في ألم وشقاء . ولكن ما كان يظهر عليهم من تألم كان يظهر في المرحلة التى كانوا يحددون فيها المشكلات ويحلونها وتظهر كذلك لوقوف العوائق في سبيلهم . ولكنهم كانوا يستمتعون بالجهاد والمخاطرة والسعى ، وكانوا يسعدون برؤية فكرتهم تتحقق تحقيقا فعليا بين الناس . وقد يظن أن التعبير النفسى بالكتابة أو الخطابة وأمثالهما كاف لتحقيق السعادة ، ولكن هذا غير كاف . فتحقيق السعادة لا يحدث كاملا الا بتحقيق الذات ، وقد يتم بصورة جزئية عن طريق التعبير عن المشاعر النفسية . ويمكننا أن نقول على وجه العموم : ان سعادة المرء في تحقيق ذاته ، لا في مجرد التعبير عن نزعاته واتجاهاته النفسية .

وقد سبق أن بينا أن تكامل الشخصية في أعلى مراحلها ، يرتبط باتساع الأفق الذى ارتضى الشخص لنفسه أداء واجبه فيه . وهذا يكون عن طريق فكرة واضحة ، تشغل ذهن الفرد وينتجه الى تحقيقها . وفي وجود مثل هذه الفكرة والاتجاه الى تحقيقها أرقى أنواع التكامل الخلقى ، وفيه كذلك تحقيق فكرة السعادة . فاذا كان هذا الرأى في السعادة صحيحا ، فاننا نستنتج انه لازدياد سعادة شخص لا يجوز أن يزيد فقط من مجموع لذاته ، وانما نعمل أيضا على تحسين شخصيته ، وتقويتها ، وانسجام عناصرها ، وتوحيد وجهاتها .

ويمكننا أن نوفق بين مختلف الآراء . فعلماء التربية الخلقية يرون أن الغرض من التربية هو تكوين شخصيات قوية متماسكة ، وآخرون يرون

أن الغرض هو الزيادة في سعادة الإنسان بصفة عامة . ونرى أن تحقيق أحد الغرضين نتيجة طبيعية لتحقيق الغرض الآخر .

تطبيقات تربوية :

رأينا من كل ما تقدم العوامل المختلفة التي تؤدي الى نمو الخلق وتكامل الشخصية . ورأينا كيف أن « غرائز » الفرد تخضع للتوجيه والتجمع حول موضوعات أو أفكار تختلف باختلاف الأشخاص . والعوامل التي تؤثر في هذا التوجيه للنزعات الغريزية ، تبدأ عادة بسلطة فردية ، هي سلطة الوالد أو من يقوم مقامه . وقد بينا أن أثر سلطة الوالد من ثواب وعقاب ومدح وذم ورضا وسخط ، يكون مسبقا نوعا ما بالتوجيه الناشئ من طبيعة الأشياء . فهذا حلو نقدم عليه ، وذلك مر نحجم عنه ، وهذا دافئ نقبل عليه ، وذلك بارد أو حار نبتعد عنه . ولسلطة الوالد فاعلية عن طريق الجزاء ، وعن طريق المثال .

فالطفل يريد مثلا أن يخطف لعبة من صديق له . فواجب الأم ألا تقره على سلوكه ، وواجبها كذلك ألا يكون في سلوكها ما يشعر من قريب أو بعيد أنها تتجه مثل هذا الاتجاه . لنأخذ مثلا آخر أوضح من هذا وهو السب . فقد يقتبس الطفل بعض ألفاظ السب من زملائه ، فان كان يجو المنزل شيء من الحرية ، فانه يجرب ألفاظه هذه في المنزل . وعلى الأم هنا واجبان . أولهما اظهار عدم الرضا ، أو ما شابه ذلك ، وثانيهما شدة الحرص على ألا تستعمل ألفاظ السب بحال من الأحوال ، سواء أكان هذا مع الأطفال أو الخدم أو غير ذلك ، وسواء أكان هذا عن قصد أو عن غير قصد . وبعبارة أخرى : على الآباء أن يربوا أنفسهم أولا تربية دقيقة على كل ما يريدون أن يربوا أولادهم عليه ، وهذه أول قاعدة تسهل على الآباء وعلى المدرسين عملهم في التربية الخلقية ، ذلك لأن المرجع الثابت للطفل هو المنزل والمدرسة فالطفل يرى في الطريق العام وفي دور السينما ومع زملائه أمثلة كثيرة ، بعضها سيئ وبعضها حسن ، ومصادر هذه الأمثلة مصادر متغيرة . فلكي يصدر حكمه عليها ، يقيسها عادة على ما في المصادر الثابتة نسبيا من سلوك . وهذه المصادر الثابتة — كما قلنا — هي المنزل والمدرسة . أما ما يقال أحيانا من

أن لعب الأطفال بعضهم مع بعض يكون عاملاً أساسياً في إفساد خلقهم ، فانه قول مردود ، ويجد الآباء فيه فرصة طيبة لتحويل اللوم عن أنفسهم الى غيرهم . ونعتقد ألا خوف على الأطفال من كثير من مشاهد السينما ما دام جو البيت سليماً منظماً خالياً من التزمّت ، وخالياً من التساهل المطلق . والطفل بحكم حبه لوالديه يتوقف رضاؤه عن نفسه على رضائهما عنه . وبذلك تتكيف فكرته عن نفسه بالكيفية التي يرضونها . وأثر الوالدين لا يقتصر على استعمال السلطة من ثواب وعقاب أو مدح وذم أو رضاء وسخط ، وانما يتعداه — كما قلنا — الى التقليد واقتباس الأفكار والقيم والعقائد عن طريق الاستهواء . وفي الوقت نفسه نجد الأطفال يقتبسون اللون الوجداني المصاحب لهذه الأفكار عن طريق المشاركة الوجدانية . فاذا اشمأز الآباء من سلوك شخص يسرق ، نجد الأطفال كذلك يشمئزون من سلوك من يسرق . وبهذا تكون قد انتقلت الى الأطفال فكرة أن السرقة سلوك مذموم ، يتلون في نظرهم بلون الكراهية والاحتقار والاشمئزاز . وهذا يتم بصورة أكثر فاعلية ، اذا كان الآباء على درجة من الأمانة لا يتطرق اليها أى شك ، بحيث لا ينتاب الأطفال شعور بالفجوة بين سلوك آباءهم وموقفهم من سلوك غيرهم ، مما يجعلهم لا يتأثرون فيما بعد من اشمئزاز الآباء أمام حالات السرقة .

من هذا نرى أن سلوك المرء وفكرته عن هذا السلوك ، يشآن الى حد ما من أثر السلطة الفردية للوالد أو المدرس عن طريق ما يقوم به من سلوك ، وعن طريق ما يقره من سلوك الطفل ، وعن طريق الاتفاق بين سلوكه وما يقره من سلوك الطفل ، وكذلك عن طريق الجو المنزلى أو الجو المدرسى الذى يتكون من أثر سلطة المدرس أو الوالد . وواضح أن الثبوت فى موقف السلطة أو السلطات ، يترتب عليه وصول الطفل فى سرعة وفى وضوح الى تقدير قيم السلوك من حيث ما يحسن به عمله ، وما لا يحسن به عمله .

وعندما يكبر الطفل يبدأ يتحرر من أثر السلطة الفردية ، ويتأثر بسلطة زملائه أو بسلطة الجماعة التى ينتمى اليها . فتعتبر الجماعة التلميذ المراهق

شجاعا اذا اشترك معها في الثورة ضد استبداد سلطة فردية ، وتعتبره جبانا اذا سلك غير هذا المسلك . وكذلك المراهق يعتبر نفسه شجاعا أو جبانا بحسب نظرة المجموعة اليه . وبهذا يدخل عامل جديد في تكييف أفكار الناشئ . وكثيرا ما نرى صراعا بين سلطة المجموعة وسلطة الوالد أو المدرس فالوالد يقول للناشئ انه لا يصح له أن يتبع الجماعة ، والجماعة تقول له انه جبان اذا لم يتبعها . ويقع الناشئ في تردد بين الفكرتين . على أن هذا لم يكن يحدث في المرحلة السابقة من النمو ، عندما كان أثر سلطة الوالد أو المدرس متغلبا على أثر كل سلطة أخرى . ونجد في دور المراهقة أن تعديلا كبيرا في فكرة المرء عن نفسه يبدأ يظهر على ضوء أثر انتماء التلميذ للجماعة . ولحياة الجماعة — من أخذ وعطاء ، وظلم وعدل ، وتحيز ومساواة ، ومن خضوع لحكم الجماعة — آثار بعيدة المدى . ولهذا كان في نظام الأسر ، وفي الحياة الجماعية في المدارس ، وفي أندية الشباب ورحلاتهم ومعسكراتهم ومبارياتهم ، فرص طيبة للتربية الخلقية يراعى فيها رضاء الجماعة وسخطها ، وتنظيم هذا لتعديل سلوك الناشئ ، ولتعديل فكرته عن نفسه وفكرته عن غيره .

ويتجه المراهق عند محاولة التحرر من أثر السلطة الفردية ، الى دراسة حياة الأبطال والزعماء ، المعاصرين منهم وغير المعاصرين . ويحسن بالمدرسين والآباء أن يضعوا في طريق الناشئين أعمال هؤلاء الأبطال وتواريخ حياتهم ، لكي يقتبسوا منها الأفكار والصفات العالية التي يتشوقون لاقتباسها ، ولمحاولة ممارستها على طريقتهم في هذه السن . والناشئ عند محاولته التشبه بهؤلاء الأبطال ، يرقى بفكرته عن نفسه ، وينقد نفسه على ضوء صفات هؤلاء الأبطال ، وعلى هدى هذا النقد يعدل فكرته عن نفسه ، وعن سلوكه ، وعمما يجب عمله ، وعمما لا يجوز اتيانه من الأعمال . ويسهل عليه الافادة من دراسة سلوك هؤلاء الأبطال أن يرى بعض صفاتهم حية أمامه في والديه ومدرسيه . واذا أراد التلميذ — برغم صغره وقلة خبرته — أن يمارس خدمة اجتماعية ، أو بحثا عن حقيقة ، أو مخاطرة في رحلة ، أو اسداء خير لمنكوب ، فعلينا أن نشجعه وألا نحقر من شأن عمله ، لأن الممارسة هي التي تعطى

الفرد فكرة عما يمكنه عمله وعما لا يمكنه عمله ، وهى التى تحول الفكرة الى عمل ثم الى طبيعة ثابتة ، فلا يصبح شخصا يتحدث عن المثل العليا دون أن يمارس بعض نماذجها ، وعن الديمقراطية وهو من أشد الناس استبدادا ، وعن الايثار وهو من أشد الناس أنانية .

نرى من كل ما تقدم أن نمو الخلق يأتى نتيجة تأثر الفرد بمختلف العوامل . وتبدو فاعلية هذه العوامل فى الثواب والعقاب ، وفى المدح والذم ، والرضا والسخط وفى النقل عن طريق التقليد والاستهواء والمشاركة الوجدانية ، وفى درس الافكار والصفات التى نجدها فى الزعماء والأبطال وفى نقد الذات على ضوء كل هذه التأثيرات ، وفى ممارسة الصفات والافكار التى نقتبسها ممن حولنا وممن أعجبنا بهم ودرسناهم من الزعماء والأبطال . ويتم كل هذا نتيجة تفاعلنا مع الآباء والمدرسين ، وأعضاء المجموعة ، وزملاء المدرسة ، ورفقاء النادى وغيرهم ، ونتيجة قراءتنا ومشاهداتنا وغير ذلك .

وهناك نقطة هامة لا بد من توكيدها تتعلق بفكرة تحديد الذات ؛ فالشخص اذا رأى ما ينتمى الى نفسه معكوسا فى الخارج كان هذا مصدرا هاما من مصادر الثقة فى نفسه ، والرضا عنها ، وتقديرها تقديرا أقرب الى الحقيقة . فالصانع الذى يرى أمامه نتيجة صناعته ، يرى فيها مقياسا لمقدرته ، ويتوقف احترامه لنفسه . ورضاؤه عنها ، وثقته فيها على حسن صنعه لهذا الناتج . وكلما اتسعت الميادين التى تتحقق فيها الذات ازدادت ثقة المرء فى نفسه واحترامه لها . فالذى يرى كتبه تقرأ فى كل مكان يختلف فى تقديره لنفسه عن ذلك الذى لا يرى أثرا لكتبه بين الناس . وطبيعى أن الشخص الأول يكون أكثر اندفاعا نحو التأليف وأخصب اتجا من غيره . من هذانرى أن معاونة النشء على تحقيق ذاتياتهم عامل هام فى تكوين شخصياتهم ، وفى تحسين فكرتهم عن أنفسهم ، وفى تثبيت ثقتهم بها . فالتلميذ الذى يكون عاديا فى دراسته ، قد يكون مبرزا فى قدرة موسيقية أو فى التمثيل أو الغناء أو الرسم ، أو فى ناحية من النواحي الرياضية ، فاذا هيانا الفرص فى المدرسة لظهار إنتاج التلاميذ فى مثل هذه النواحي ، فاننا نفتتح آفاقا جديدة لتحقيق

الذات عند كثير من التلاميذ المتوسطين في النواحي الدراسية . فالتلميذ الذي يعزف قطعة موسيقية ، ويرى جمعا من زملائه ينصتون اليه ، ويصفقون له يشعر بكثير من الارتياح ، ويشعر بمقدرته على اسداء نوع من الخدمة لزملائه . كذلك الرياضي الذي يحرز لمدرسته كأس التفوق ، يعتز بنفسه ، وتعزز الجماعة به لاسدائه خدمة قيمة للمدرسة . وعندما يقوم الناشئ بكتابات ورسومه وألعابه وغير ذلك ، يقوم بنوع من تحقيق الذات . ويجد فرصة للموازنة بين نفسه والشخصيات التي يريد أن يتشبه بها ، وبهذا يتقدم تقدما يطرده مع تقدم نماذج البطولة التي يتخذها أمثلة له .

وقد كان يبدو لأول وهلة أن هناك خلافا بين « ديوى » و « برسى ن » في نظرتهما الى التربية . فنظرة الأول نظرة اجتماعية ، ونظرة الثاني فردية ذاتية . ولكن اذا تذكرنا أن نمو الذات لا يتم الا عن طريق التفاعل المستمر مع الأشخاص المحيطين ، وأن فكرة المرء عن نفسه — كما يقول « مكدوجل » — مركب اجتماعي ، واذا تذكرنا كذلك أن من أهم عوامل نمو الذات تحقق الذات في وسط اجتماعي أمكننا أن نرى ألا تعارض بين الاتجاهين ، فالتربية الاجتماعية التي يؤكد « ديوى » تؤدي الى نمو الفردية والذاتية . ونمو الذاتية الذي يؤكد « برسى ن » لا يمكن الوصول اليه الا بتحقيق الذات في الوسط الاجتماعي .

ويمكننا أن نتصور أن المدرسة التي يتشبع جوها بالنواحي العملية ، وبالنشاط الاجتماعي العملي ، والتي يتم فيها الأخذ والعطاء ، وتتاح الفرصة فيها للنجاح الدراسي والعملي والاجتماعي ، يسهل فيها انماء الولاء للمدرسة ولمبادئها ولشخصياتها في نفوس التلاميذ ، ويمكن أن تتجمع حول فكرة الولاء للمدرسة أغلب الاتجاهات النفسية ، وبهذا نحصل على نوع من التكامل يسهل الارتقاء به الى تكامل حول الولاء للوطن ، أو الولاء للانسانية ، مع خدمة المبادئ العليا من صدق وأمانة وإخلاص وغير ذلك . واذا وضع المدرسون هذا المبدأ أمام أعينهم ، أمكنهم أن يكونوا من تلاميذهم شخصيات أقرب الى التكامل والاتزان ، وأكثر شعورا بالسعادة ، وأقدر في الكفاية الذاتية والاجتماعية .

المراجع

1. Allsop : Psychology for Teachers. Chs. III — VIII.
2. Aveling : Personality and Will. Chs. VII — IX.
3. Banks, F. : Conduct and Ability.
4. Edgell, E. : Mental Life. Chs. XIII — XV.
5. Mc Dougall : Social Psychology. Chs. V — IX.
6. Mc Dougall : Outline of Psychology. Ch. XVII.
7. Mc Dougall : Energies of Men. Chs. XIII. & XIV.
8. Stout : Groundwork of Psychology. Chs. XVII & XIX
9. British Journal of Psychology : 1922.
Symposium on Sentiments & Complexes.

الفصل الخامس عشر

الحياة العقلية اللاشعورية

بيننا في الفصل السابق الطريقة التي تتكون بها العواطف وتتكامل في وحدة مؤتلفة الأجزاء . والصورة التي رسمناها لتكامل الشخصية قلما نجدها في الحياة الواقعية . فالعناصر التي تتألف منها الشخصية لا تعمل عادة بهذا الانسجام الذي أشرنا إليه ، فنجد بينها شيئا من التعارض . ولكي نفهم هذا نرجع مرة أخرى الى التشبيه الذي أقمناه ، وهو أن الشخصية المتكاملة تشبه جمعية من الناس متكاملة مؤتلفة متحدة الأغراض . ويحدث أحيانا أن يختلف بعض أعضاء الجمعية عن بقية أفرادها ونجد إذ ذاك نوعا من الشد والمقاومة ، يقصد به فصل هذه العناصر المشقة أو اضعاف أثرها ، ونجد عادة أن هذه العناصر المشقة تكون مصدر قلق واضطراب ، وتعمل في الخفاء لا ثبات نفسها ولو على حساب ازعاج بقية أفراد المجموعة . كذلك نجد أن بعض عناصر الشخصية لا ينسجم مع الاتجاه الظاهري العام لهذه الشخصية . فقد نجد جنديا تتجه كل قواه للدفاع عن وطنه . وقد يجد الجندي نفسه ميالا الى فتاة تنتمي الى العدو ، فلكى تنسجم نزعاته كلها بعضها مع بعض ، قد يجد نفسه يحاول الضغط على هذا الحب وابعاده والقضاء عليه . وقد يجد نفسه يتردد بين اتجاهين ، فأحيانا يصارح نفسه بحب هذه الفتاة ، وأحيانا يصارح نفسه بعكس ذلك . وتكون نفسه إذ ذاك منقسمة على نفسها ، جزء منها يتعارض مع الجزء الآخر . ويحدث في الأمم أحيانا أن تقوم فيها حكومات تملئ اتجاهات لا تتفق مع بعض اتجاهات الأفراد ، فيظهر شيء من التنازع بين بعض أفراد الأمة والحكومة القائمة .

فاذا زادت مصادر الشعب اضطرت الحكومة الى زيادة المقاومة ، وزيادة الضغط بفرض أحكام عسكرية ، أو أحكام عرفية ، أو رقابة دقيقة ، أو ما الى ذلك . وبهذا تبدو الأمة بحكومتها منقسمة على نفسها ، وتبدو المقاومة والشدة والرقابة والضغط بين الجانبين . ويمكننا أن نرى صورة كل هذا في الصحف اليومية . فتجد فيها مدحا لأعمال الحكومة ، وتجد فيها أخبارا تظهر بصورة تنكيرية في شكل صور كاريكاتورية ، أو في شكل أخبار صغيرة مدسوسة بين عدد كبير من الأخبار الأخرى . وهذه الأخبار تفلت عادة من الرقيب الذى تتلخص وظيفته فى اقتفاء الأخبار التى يرى نشرها فينشرها وفى منع كل ما عداها من النشر فيكبتة ويبعده عن الصحف . وتجد أن ضغط هذه الأخبار التى تمنع يكون كبيرا ؛ بحيث لا يسهل منعه من التسرب الى الناس بصورة أو بأخرى . وكلما تسربت هذه الأخبار الى الناس ازداد التصادم بين السلطة والشعب . وبنفس هذه الصورة نجد فى الانسان نزعات قوية تحاول الظهور ، ولكن الانسان يضغطها ويمنعها ، حتى يظهر أمام الناس بالصورة المؤدبة الراقية التى يرتضونها ، والتى يرتضيها هو لنفسه تبعا لذلك . فالمجتمع لا يرتضى من الشخص أن يعبر عن نزعاته الجنسية والاعتدائية تعبيرا مطلقا خاليا من كل قيد . ولكن التعبير المطلق الخالى من كل قيد محبب الى النفس البشرية . فلكى يبدو الانسان مهذبا فانه لا يعتدى على من يعتدى عليه ، ولكن قد يشكو أمره الى القضاء ، وهذه طريقة بطيئة النتيجة ، لا تؤدى عادة الى الشعور بالارتياح الذى يتبع الانتقام السريع المباشر من المعتدى . فتجد أحيانا أن النزعة الانتقامية تتغلغل وتبقى حية ، وتظهر لدى الشخص فى أحلامه أو نكاته ، أو فلتات لسانه ، أو حركاته أو غير ذلك . ويظهر الكبت بصورة أشد فى حالة الطفل الذى يشعر بظلم والده فى معاملته اياه . هذا الطفل لا يمكنه أن ينتقم من والده ، وفى أغلب الأحيان لا تخطر له الفكرة على بال ، ولكنه قد يحلم بالليل أن والده قد مات . وقد يحلم حلما مقنعا ، فيحلم أنه قتل أسدا أو ثعبانا أو زعيما . وفى هذه الحالة يكون الأسد أو الثعبان أو الزعيم صورة رمزية

للقوة أو للأب باعتبارد مكنم القوة في نظر الطفل ، ويلاحظ في هذا المثال أن الطفل لم يخطر له على بال أن يقتل والده أو ينتقم منه ، ولكن النزعات الانتقامية تتحرك فيه وتعمل بصورة خفية ، تشبه الحركات التي تقوم بها الجماعات السرية الارهابية التي يظهر أثرها دون أن تشعر بوجودها .

وقد شبه « طومسون »⁽¹⁾ ما يحدث من الضغط على نزعات الانسان وغرائزه ، باقامة سد في سبيل تيار قوى . فالطاقة الغريزية في صورها الفطرية ، تتدفق بقوة للتعبير عن نفسها عن طريق الاتصال بالعالم الخارجى ، وتشبه في هذا تيارا قويا من الماء يتجه في اتجاه معين . فاذا أقيم سد في سبيل هذا التيار بغض النظر عن تدبير وسيلة لتصرف ما يتجمع خلف السد من الماء ، فإن نتيجة هذا تكون واحدة من ثلاث :

الأولى : قد لا يكون السد متينا فلا يتحمل ضغط الماء من خلفه ، فيتصدع من حين الى آخر ، ويخرج منه الماء بعنف شديد . ويشبه هذا ما يحدث مع أبناء المتمسكين بالدين والفضيلة تمسكا استبداديا ، فيضغطون على حرية أولادهم حتى لا تفسد أخلاقهم . وينتهز هؤلاء الأولاد أول فرصة ، فيندفعون لتحقيق نزعاتهم الغريزية المكبوتة ، ويقومون بهذا عادة في صورة عنيفة متطرفة . ولهذا كانت اقامة المعسكرات ، والخروج للتجول والصيد والرحلات ، والاشترار في حفلات السر ، والمبارزة والملاكمة ، وتبادل النكات وما الى ذلك ، يعطى فرصة لكثير من الغرائز للتعبير عن نفسها . وبذلك يخف ضغط الطاقة الغريزية على ما يقام في سبيلها من موانع .

الثانية : قد يكون السد قويا ، وتكون التربة التي يجرى فيها الماء ضعيفة ، فتسمح بتكوين القنوات والطرق الخفية . ولهذه نتائج متعددة ، أهمها : زيادة اضعاف التربة ، واحتمال ظهور الماء في أى جهة أخرى وبغير ضابط مما يؤدي الى التعرض لمشكلات يصعب التنبؤ بمقدارها أو بموضوعها مما يزيد في صعوبة التغلب عليها . وهذا يذكرنا بما نراه في بعض الأولاد الذين يضغط عليهم آباؤهم ضغطا شديدا يؤدي الى أن يخاف الواحد منهم أمام والديه . فيظهر بالأدب والطاعة ، ولكنه يحقق في الخفاء ما لا يحققه أمام

(1) G. Thomson : Instinct, Intelligence and Character ch. 16.

والديه . والطفل بطبيعته يميل الى اثبات شخصيته ، فاذا امتنع عليه هذا أمام والديه أمكنه أن يثبته بعيدا عن طريق التدخين والسب وتعذيب الصغار وغير ذلك . وقد يقف الوالد على كل هذه العيوب بعد ان تكون قد تمكنت من نفس الناشئ ، ويجد الوالد نفسه في حيرة ؛ فهو لا يعرف ما اذا كان قد كتب كل عيوب أولاده أم لا ، لأنها تظهر كالاتفجارات بغير ضابط .

الثالثة : قد يكون السد منيعا والتربة قوية ، وبذلك ينجح السد في منع ما وراءه من تيارات متدفقة . وزيادة على ذلك فإن ازدياد المقاومة بين السد والتيار يترتب عليه ازدياد القوة في السد نفسه ، وكذلك يترتب عليه ازدياد في شدة التيار خصوصا خلف هذا السد ، وتتلخص الخسارة في هذا في أن قوة الماء لا تستغل للصالح ، وأن الجهد كله يصرف في المقاومة بين السد والتيار . فكلما قوى التيار قوى السد ، وكلما قوى السد ازدادت شدة التيار . وفي العادة لا تستمر هذه الحال ، فينتهي الأمر ان عاجلا وان آجلا بانهيار السد وتصدع التربة وضياع الماء هباء . وفي مثل هذه الحالات من الصراع الانساني نجد أن الأمر ينتهي بالانهيار النفسى على الصور التى نراها عادة في مستشفيات الأمراض العقلية .

ونود أن نؤكد هنا أن للتشبيهات بعض نواحي النقص ، فليس من الممكن دائما أن نعقد موازنة تامة بين كل حالات الصراع النفسى ، وكل الحالات التى يمكن أن نجدها من اقامة سد في وجه تيار مائى متدفق .

توجيه النزعات الفطرية :

رأينا مما سبق أن الوقوف في سبيل النزعات الفطرية يؤدي الى نتائج تضر بالتكوين النفسى للفرد ، ويظهر أثرها في تصرفاته . ونجد أن السلوك الغريزى يتعرض لأنواع من التعديل ، فيتعرض لما نسميه « الاعلاء » وهو أن تسير بالطاقة الغريزية في اتجاه راق يحترمه المجتمع ويستفيد منه . فحجب الاستطلاع مثلا يسير نحو الكشف والاختراع ، ودافع الحل والتركيب

يسير نحو البناء الصالح ونحو هدم كل ما هو ضار ، والميل للمقاتلة يسير نحو مقاتلة الأمراض الجسمية والاجتماعية ومقاتلة ما من شأنه أن يضر بكيان المجتمع . وهكذا يمكننا أن نحول الطاقة الغريزية من مجراها الطبيعي البدائي الى مجار راقية تنفع الفرد والمجتمع .

وقد تتعرض الطاقة الغريزية (١) لنوع آخر من التعديل ، وهو الذى نسميه « القلب » ، وهو ضد الاعلاء ، فبدلاً من أن تسير الطاقة الغريزية فى اتجاه صالح ، نجدها تسير فى اتجاه يضر الفرد أو المجتمع أو كليهما . فالسرقة تعتبر قلباً لحب التملك ، والاستهزاء بالناس والامعان فى احتقارهم يعتبر قلباً للميل الى السيطرة ، وممارسة العادة السرية أو الاجتماع الجنسى الشاذ يعتبر قلباً للغريزة الجنسية . ومن أمثلة القلب كذلك أن يقوم شخص بتنظيف يديه وغسلها مرة كل بضع دقائق ، ويطلب أن يغسل كل ما يقدم اليه بالماء المغلى ، ولا يقرأ كتاباً تناوله الغير الا بعد أن يمسح غلافه بمادة مطهرة ، وهو لهذا يمتنع عن قراءة الصحف اليومية ، ويمتنع عن مصافحة الناس يدا ييد ، وان حدث له هذا ، فانه يغسل يديه مرارا وتكرارا بعد ذلك . وهكذا نجده منشغل الذهن طول الوقت بالخوف من التلوث . وكل هذا يعتبر قلباً لغريزة الخوف ولغريزة التقزز .

أما النوع الثالث من تعديل الطاقة الغريزية فانه يسمى « الابدال » ، ولا يقصد به الا أن ينشغل الفرد عن اتجاه غريزى معين باتجاه آخر يختلف عن الاتجاه الأول فى أصله . فالمرهق قد يشغل أوقات فراغه بالنواحي الرياضية والرحلات والمعسكرات وبعض الأعمال الفنية ، وبذلك ينلهى عن الانشغال بالنواحي الجنسية التى لا يكون معدا لها من الناحية الاجتماعية . والفرق بين الابدال والاعلاء أن الطاقة الغريزية فى الاعلاء يتحول مجراها من منبعه الأسمى الى مجرى جديد . فاذا اعتدى عليك شخص فان الاعتداء عليه يكون سيرا بغريزة المقاتلة والسيطرة فى المجرى الطبيعي ، ولكن اذا

(١) الغريزية بمعنى الطبيعية والغريزة بمعنى الطبيعة أو الدافع الفطرى أو الاستعداد الفطرى كما سبق أن بينا .

قوبل الاعتداء عليه بالصفح في حالة المقدرة ، فان اثبات الذات عن هذا الطريق يكون أعلى من اثباتها عن طريق الانتقام . أما في الابدال فان الفرد يشغل نفسه بنشاط آخر يختلف في طبيعته اختلافا كلياً عن النشاط الأصلي فيصرف الى عمل أو رياضة بدلا من أن يتجه الى الانتقام .

ولا يمكننا في هذا المجال أن ندخل في تفاصيل العلاقات المتبادلة بين هذه الأنواع الثلاثة والكبت ؛ ففي الابدال بعض الكبت ولو انه قليل جدا بالنسبة للكبت الذي ينشأ عنه القلب . ويقال كذلك : ان الاعلاء — مع كونه خير أنواع التعديل من الناحية النفسية — يتضمن أحيانا شيئا من الكبت . فالتعير المحدد المنظم الراقى للطاقة الغريزية يتضمن بعض الكبت لأساليب التعبير الأخرى . ومع ذلك فقد يكون المجرى الغريزي الراقى الجديد قادرا على التعبير الكافي عن الطاقة الغريزية ، بحيث يشعر الفرد بالارتياح والرضا والصحة النفسية .

وتجد الطاقة الغريزية لدى الانسان مجالا واسعا للاعلاء أو الابدال ، وذلك لما له من مرونة وذكاء ومجتمع خصيب بالقوانين والنظم والقيم ومختلف الامكانيات . ولهذا ظهرت فكرة الخير والشر في المجتمع الانساني ، فأصبحنا نصف سلوك الانسان تبعا لمقاييس الخير والشر . اما سلوك الحيوان فانه — بالرغم من كونه يصدر عن طاقة غريزية تشبه الطاقة الغريزية للانسان — لا يخضع للتعديلات التي يخضع لها سلوك الانسان ، وبالتالي لا يوصف عادة بأنه خير أو شر . وواضح أن سلوك الحيوان يتعرض للكبت ولغيره من أنواع التعديل أقل بكثير مما يتعرض له سلوك الانسان . كما أن سلوك الانسان المتمدن يتعرض عادة لكبت أكثر بكثير مما يتعرض له سلوك الانسان البدائي ، هذا اذا استثنينا بعض النواحي ذات التقاليد القبلية القاسية .

يتضح مما تقدم بعض أثر الكبت في حياة الانسان ، فالكبت يكون نتيجة لصراع عقلي ، ويؤدي كذلك الى صراع عقلي آخر ينتج عنه استفاد جزء كبير من الطاقة البشرية ويتسبب عنه كثير من العلل الجسمية والنفسية

التي لا يستهان بها . وأخطر ما في هذا ان جزءا كبيرا من الصراعات النفسية يتم عادة بطريقة لاشعورية ، ويتم كثير منها في مراحل الطفولة الأولى ، وتظهر آثاره بعد ذلك .

وأول من بين أهمية الكبت وخطورته بطريقة صريحة هو « فرويد » ، وهو الذي كان مصدر الوحي لفكرة اعلاء الغرائز بدلا من محاولة قتلها ومحوها . ويختلف هذا الرأي عن رأى بعض الأمريكيين أتباع « ثورنديك » الذين يؤمنون بخضوع الغرائز لما يسمى « بقانون الاستعمال والترك » . فهم يعتقدون أن الغرائز ككل فعل آخر تقوى وتثبت بالممارسة ، وتنمحي أو تضعف بالاهمال . ويرى « ثورنديك » أن مهمة التربية تنحصر في تنشيط بعض الغرائز ، وقتل بعضها ، وتوجيه البعض الآخر . والسرف في اختلاف وجهة النظر بين الأمريكيين وغيرهم أن الأمريكيين يتحدثون عن السلوك الغريزي أو الفعل الغريزي ، وأما غيرهم فانهم يتحدثون عن الغريزة كاستعداد فطري أو طاقة حيوية . واذا اتضح الفرق بين وجهتى النظر زال الخلاف . لنأخذ مثلا غريزة البحث عن الطعام . فهناك أساليب وحركات متعددة لاشباع هذه الغريزة ومن هذه : المسك ، والعض ، والخطف ، والازدرداد ، وما الى ذلك . وينظر « ثورنديك » الى بعض هذه الحركات على أنها غرائز ، ولكنها في الواقع لا تتخرج عن كونها أفعالا غريزية . ويرى « ثورنديك » أن بعض هذه الأساليب يمكن تثبيته بالتشجع والمران ، وبعضها يمكن محوه بالاهمال والترك . ولكن اذا كان هذا ممكنا بالنسبة للأفعال الغريزية ، فانه غير ممكن بالنسبة للغريزة ، وهى البحث عن الطعام . ومن هذا تفهم ما قصدت اليه التربية الحديثة من وجوب الاعتراف بالغرائز كمنابع للنشاط الانساني ، وبوجوب الامتناع عن اقامة السدود والحواجز في طريق التعبير عن هذه الغرائز ، وبوجوب العمل على توجيهها في الطرق والمجاري الصالحة التي يعترف بها المجتمع ، ويقرها ، ويفيد منها لصالحه وصالح الفرد .

الشعور والاشعور :

فهمنا بصورة تقريبية ما يقصد بالكبت ، وعرفنا أن وظيفته هى منع النزعات النفسية من السير في طريقها الطبيعي . وعلمنا كذلك أن هذا المنع

لا يقضى على النزعات النفسية ، فهي تظل قوية متحفزة للظهور ، ولكنها تبقى مع كل هذا مختفية فيما يسمى « بالاشعور » . وليس معنى هذا ان العقل مقسم الى مناطق بعضها شعورى وبعضها لاشعورى . وانما يقصد بكلمة « الالاشعورى » وبكلمة « الشعورى » أنهما وصفان للعمليات والنزعات العقلية .

وعناصر الحياة العقلية . يمكن تقسيمها على وجه العموم الى شعورية ولاشعورية . والعناصر الالاشعورية يمكن تقسيمها الى قسمين ، أحدهما العناصر الالاشعورية التى يسهل استرجاعها وتذكرها ، والقسم الآخر تدخل تحته العناصر الالاشعورية التى لا يمكن استرجاعها الا بطرق فنية خاصة ، وهى طرق التحليل النفسى .

والحالات العقلية الشعورية هى التى يتكون منها شعورى فى هذه اللحظة . وواضح أنها محدودة وضئيلة جدا بالنسبة للحالات التى تنتمى لحياتى العقلية ، والتى لا توجد فى شعورى فى هذه اللحظة . فاذا كنت أفكر الآن فى حل مسألة رياضية ، فالذى أشعر به فى اللحظة هو ادراك المسألة ، وادراك العلاقات بين عناصرها ، ومحاولة استخدامها فى الوصول الى المطلوب من المسألة . ولكن العمليات العقلية الشعورية الحالية تتأثر بكثير من الخبرات الماضية فى النواحي الرياضية وغيرها ، مما يعينى فى حل المسألة بدون أن أشعر به شعورا صريحا واضحا . ومن أمثلة ذلك ما تقوم به عند ايجاد حاصل ضرب « 9×9 » فانك لا تجمع التسعة تسع مرات كما كنت تفعل فى الصغر ، وانما تصل الى الجواب دفعة واحدة متأثرا بخبرة الجمع التى قمت بها فى الصغر بدون أن تكون شاعرا بهذا التأثير . كذلك اذا سئلت عن الجذر الرابع للعدد « ٦٢٥ » ، فانك تجيب على الفور بأنه « ٥ » متأثرا بذلك بخبرات الماضى بدون أن تشعر بعمليات عقلية سابقة يمكن استرجاعها بسهولة .

ويدخل تحت الحالات العقلية الالاشعورية التى يسهل استرجاعها كثير من الخبرات السابقة والذكريات والمعلومات والعواطف ، وما الى ذلك .

فإذا سألناك الآن عن اسم عاصمة فرنسا وعن موقفها في الحرب العالمية الثانية ، فانك قد تجيب اجابة صحيحة بمعلومات كانت لاشعورية قبل أن تستمع الى السؤال ، ثم أصبحت شعورية للاجابة عنه ، ويقال عندئذ : ان هذه المعلومات كانت في حالة لاشعورية يسهل استرجاعها .

ويدخل تحت الحالات العقلية اللاشعورية التي لا يمكن استرجاعها الا بطرق خاصة ، تلك الذكريات المؤلمة المنسية التي قد تؤثر فينا دون أن ندركها ، فتؤثر في اتجاهات تفكيرنا ، وفي سلوكنا ، وفي أحلامنا وما الى ذلك . ويدخل تحتها كذلك النزعات النفسية القوية التي لا تجد سبيلا الى التحقيق ، فتستبعد بطريقة ما ، وتصبح في حالة لاشعورية ، ولكي نفهم هذا نذكر ما يحدث عندما يضرب الوالد ابنه المراهق . يشعر الولد عادة بأنه قد كبر ، وأنه ليس من حق والده أن يضربه هكذا . ولكنه كثيرا ما يقنع نفسه بأنه يحب والده ، وبأن والده يحبه ، وبأن ما وقع عليه من الضرب كان أمرا مقبولا للنفس . بهذا استبعد الولد كراهيته لأبيه ، ورغبته في الانتقام منه ، بدون أن يشعر بأنه فعل هذا . فيعلن أمام نفسه وأمام الناس بأنه يحب والده ويحترمه ، ولكنه قد يحدث شغبا يزعج والده وهو نائم ، وتجده يحدث هذا الشغب بالرغم من ارادته ، وتجده يعتذر عنه ، ولكن يتكرر صدوره منه . وقد يحلم بالليل أن والده قد قضى نحبه ، وينزعج عادة لهذا الحلم الذي يقوم فيه بتحقيق رغبة لاشعورية ، وهي الانتقام منه . وقد لا يكون الحلم صريحا الى هذا الحد ، فيرى مثلا في الحلم أن ملكا قد مات ، أو أن أسدا قد قتل ، ويكون كل من الملك والأسد في هذه الحالة رمزا للوالد وما يكمن فيه من سلطان وقوة .

والذي يحفظ الحالات العقلية اللاشعورية في هذه الصورة اللاشعورية ويمنعها من غزو « الشعور » هو ما سميناه بالكبت .

يتضح من هذا ان الحياة العقلية الشعورية تتأثر بمؤثرات عديدة ، فهي تتأثر بالمدركات الحسية عن طريق الاتصال بالعالم المحيط ، وتتأثر كذلك بالذكريات والخبرات التي يسهل استرجاعها ، وتتأثر أيضا بالذكريات

والنزعات اللاشعورية المكبوتة التي لا يمكن استرجاعها إلا بصعوبة كبيرة وبأساليب خاصة .

ويرى بعض علماء النفس أن يكتفوا بتقسيم الحالات العقلية الى شعورية ولاشعورية ، ولا يدخل تحت الحالات العقلية اللاشعورية الا تلك الحالات المكبوتة التي يصعب استرجاعها بأساليب التذكر الاعتيادية . فيعتبرون المعلومات والعواطف والخبرات في حالة شعورية ما دامت سهلة الاسترجاع . ويعتبرون الذكريات المؤلمة والرغبات المكبوتة المستبعدة في حالة لاشعورية . ويقصد بالكبت المقاومة التي نبذلها عادة - دون أن نشعر - ضد رغبة قوية نرى انه لا يجوز لنا تحقيقها ، أو لا نريد تحقيقها لأنها تتعارض مع رغبة أخرى تفضلها عليها . ويقال أحيانا : ان الكبت هو محاولة ابعاد الأفكار المؤلمة عن النفس .

ومحاولة الابعاد هي في الواقع محاولة للفصل الذي سبق أن أشرنا اليه ، وهو فصل بعض الدوافع والذكريات عن الشعور . وتتم عملية الفصل نتيجة لصراع عقلي ، ويستمر الصراع العقلي عادة بطريقة لاشعورية بعد حدوث الفصل .

حالة :

ولكى نفسر ما يقصد بعملية الفصل أو الكبت ، وما يقصد بالذكريات التي يسهل استرجاعها وتلك التي لا يسهل استرجاعها . وما يقصد كذلك من أثر كل من هذين النوعين من الذكريات في تصرفات الشخص ، نشير الى الحالة التي أوردناها في مكان آخر ^(١) ، وهي حالة الطيب الضابط الذي ظهرت عليه أعراض الخوف الشاذ الذي أدى الى انهيار قواه المعنوية وأدى الى ضرورة ارساله الى المستشفى للعلاج . وكان هذا الضابط في اليوم الأول من وصوله الى الميدان حينما أعطى فأسا صغيرة ، وقيل له انه يمكنه استعمالها لتقاذ نفسه . اذا ردم عليه الخندق في أثناء المعركة . وأدرك شذوذ مخاوفه عندما رأى غيره يعيشون في الخنادق ، ورأى نفسه غير قادر على

(١) أسس الصخة النفسية ص « ١١٢ » الطبعة الرابعة .

هذا . وازدادت حالته سوءا فأصيب بأعراض شديدة من الأرق والتهته وسوء الهضم وغير ذلك .

وكان الضابط قبل ذهابه الى الميدان لا يحب الأماكن المغلقة ، وذكر انه لما كان في سن السادسة كان ينام في حجرة ضيقة لا تتسع الا لسري واحد ، وكان أخوه يشاركه في هذا السرير ، ويختار الجزء الخارجى القريب من الباب ، ويترك له الجزء الداخلى المجاور للحائط . وتذكر حالة الخوف الشديد الذى كان يستولى عليه لشعوره بعدم القدرة على الخروج اذا دعت لذلك حاجة. وذكر كذلك انه كان يخاف من مرور القطار — اذا ركب — فى النفق ، وكان يشتد خوفه لدرجة بالغة اذا وقف القطار فى داخل النفق ، ثم ذكر انه كان اذا ذهب الى اجتماع أو حفلة فانه يفضل أن يكون قريبا من الباب ، ويجب أن يتأكد أن الباب مفتوح أو سهل الفتح كى يسهل عليه الهروب اذا لزم الأمر . وكان يميل فى قراءته الى مطالعة أخبار من يحسون فى غرف ضيقة ، وكان يضرب عند استماعه لقصص الذين يدفنون أحياء .

واتصف فى طفولته بالعصية والمخاوف الليلية والقلق ، وبدأ يتعر فى حديثه فى سن الثانية عشرة ، ثم خف هذا التعر كثيرا ، غير انه كان يعود اليه عندما تسوء حالته الصحية .

وقد تمكن فى أثناء التحليل النفسى من استعادة بعض هذه الذكريات فى سهولة ويسر ، ومن استعادة بعضها الآخر بعد جهد . وباستعادة هذه الذكريات خفت وطأة الأعراض عنده ، الا أنها لم تزل تماما . وقص فى أثناء التحليل النفسى بعض أحلامه ، حيث رأى فى أحدها انه كان فى فرنسا ، وأن شخصا كان يطارده الى حفرة عميقة ، وأن هذا الشخص قد قتل أربا بدلا من أن يقتله ، ثم رمى الأرب فى مستنقع مغطى بالقاذورات . فعادت الحياة الى الأرب ، وعام فى المستنقع ، وحاولت اذ ذاك فتاة أن تقتله بآلة حادة ، فلم تتمكن من احداث جرح فى عنقه . وطلب منها صاحب الحلم أن تقتله بالناحية الأخرى غير الحادة ، ثم استيقظ . وكان يعتبر الأرب حيوانا مخيفا يخشى أن يفلت منها . واستمر خوفه مدة بعيدة بعد استيقاظه . ولما تأمل

صاحب الحالة في حلمه هذا تذكر أنه عندما كان يعيش في البيت الذي كان يشارك فيه أخاه في فراش واحد ، كان أخوه يهوى تربية الأرانب ، وأراد صاحب الحالة أن يشير غيظ أخيه بعد شجار كان قد وقع بينهما ، فضرب أرنا على رأسها حتى فقدت وعيها . فقام الأخ يريد أن يضرب أخاه (صاحب الحالة) بمطرقة . وعندئذ عاد الى الأرنب وعيها . وكان صاحب الحالة قد تأثر بهذا الحادث عند وقوعه ، غير انه قال انه كان قد نسيه تماما الى أن بدأ هذا العلاج . ثم تذكر بعد أيام قلائل من سرد هذا الحلم والتعليق عليه أنه كان هناك مستنقع بجوار البيت الذي كانوا يسكنونه في ذلك الوقت ، وانه رأى ثلاثة أولاد يحاولون اغراق كلب في المستنقع . فربطوا حول رقبته حجرا ثم ألغوه في الماء ، ولكنه بالرغم من هذا تمكن من أن يعوم ، فضربوه بالحجارة الى أن غاص في الماء . وكان الضابط قد نسي هذا الحادث نسيانا تاما . غير أنه كان يذكر أنه كان دائما يشعر بالخوف عند مروره بجوار المستنقع . ثم تذكر أنه حاول بالاشتراك مع ولدين آخرين اغراق قط في وعاء كبير مملوء بالماء . وكانت القطعة قوية فعاثوا مشقة كبيرة في محاولة اغراقها وكان صاحب الحالة يخشى أن تهرب القطعة في أثناء هذه المحاولة .

غير أن تذكر كل هذه الحوادث لم يكن كافيا لاختفاء الأعراض ، وان كان قد نجح في تخفيف حدة بعضها نوعا ما . ولكن الضابط رأى بعد كل هذا حلما . وبعد استيقاظه أخذ يتأمل فإعاد هذا الى ذاكرته حادثة وقعت له في سن الثالثة أو الرابعة ، وكان قد نسيها نسيانا تاما . وكانت هذه الحادثة أنه زار في يوم ما متجر رجل عجوز كان يعيش قريبا من منزلهم ، وكان هذا الرجل يشتري بعض الأدوات القديمة نظير دريهمات ضئيلة يأخذها الطفل ليشتري بها بعض الحلوى . وللوصل الى هذا المتجر كان على الطفل أن يسير في ممر مظلم ضيق . ولكنه بعد أن أخذ دريهمات وجد الباب الذي في آخر الممر مغلقا ، وبذل محاولة في فتحه ، وكان في الطرف الآخر من الممر كلب كبير يعوى ، فشعر الطفل اذ ذاك بفرع شديد . ثم كان أن

نسى الحادث تمام النسيان . وكل ما بقى له منه أنه كان يشعر بالخوف عند مروره بالقرب من هذا الممر . ولما استعاد هذا الحادث ، استعاد أيضا شعور الفزع الذي كان قد شعر به عند وقوع الحادث . وبعد استعادة هذه الذكريات بأيام رأى حلما آخر خلاصته أنه سافر الى « اسكتلندا » ليلتحق باحدى جامعاتها . وعندما استيقظ وأخذ يتأمل هذا الحلم استعاد فجأة اسما اسكتلنديا هو « Mc Cann » وفي اللحظة التي ظهر فيها هذا الاسم تذكر أنه اسم الرجل العجوز الذي كان يشتري منه السلع القديمة . وما ان استكمل في ذهنه صورة هذا الحادث واسم الرجل وانفعال الخوف وغير ذلك حتى انقشعت أعراض الخوف عنده ، خصوصا أنه قد أدرك علاقة الممر الضيق المظلم ومحاولة الخروج وعواء الكلب بخوفه وهو كبير من الخنادق والأماكن المغلقة ، وخوفه من القطط والكلاب والأرانب .

نرى من كل هذا أثر الذكريات المؤلمة في الحياة العقلية ، ونرى كيف تفصل هذه الذكريات فتصبح في حالة لاشعورية ، وتستمر تؤثر في الحياة العقلية الشعورية . فحادث الخوف من الكلب في مكان لا يسهل الخروج منه نسي نسيانا تاما ، وأصبح خوفا من النفق والخنادق والأمكنة المغلقة وما الى ذلك . ونرى كذلك كيف يحدث الكشف عما يسمى « بالعقد النفسية » وكيف أن وصول المريض الى الحادث الأول ومروره بنفس الخبرة الانفعالية التي سبق أن مر بها ، وادراك علاقتها بأعراض المرض يؤدي الى انقشاع الأعراض .

نرى كذلك من تلك الحالة كيف أن الكشف عن العامل اللاشعوري الأساسي يحدث بالتدريج ، وتسبقة مراحل يكشف فيها عن ذكريات وعوامل لاشعورية قد يظن خطأ أنها السبب في هذه الأعراض . فتذكر المريض لمخاوفه عند نومه مع أخيه برغم نسيانه لها لم يكشف العامل الأساسي ، وتذكره لحادث اغراق القط برغم نسيانه له لم يكن كافيا كذلك . وحتى تذكره لحادث الممر الضيق لم يكن كافيا الا عندما استعاد خبرته بالحادث كاملة ، فاستعاد شكل الممر ، وصوت الكلب ، وعدم القدرة على الفرار ، واسم الرجل ، واستعاد

الشعور الانفعالي استعادة كاملة . ويربط هذا كله بأعراض المرض انقضت هذه الأعراض انقشاعا تاما ، مما يدل على وجوب التعمق في التحليل في أغلب هذه الحالات . ويجدر بالمحلل ألا يكتفى بالنتائج السريعة التي يحصل عليها من التحليلات السطحية .

وتدل هذه الحالة كذلك على كيفية تأثر الحياة الشعورية اليومية بعوامل لاشعورية خارجة عن نطاق الضبط الارادى . فكان الضابط يطرب لقراءات من نوع معين ، ويتجنب أماكن معينة ويقبل على غيرها ، ولم يكن يمكنه أن يفسر أسباب هذه الاتجاهات .

عناصر الشخصية كما يراها (فرويد) :

الأنا :

وصل « فرويد » في أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحالى الى وضع فرض يستعين به في تفسير الظواهر العقلية الشاذة ، وكذلك الظواهر العقلية اليومية ويتضمن هذا الفرض أن جزءا من الشخصية ويسميه « الأنا » هو الجزء المعروف لنا ، والذي ندركه ادراكا مباشرا . وهذا الجزء متصل بعالم الواقع ، وهو يتضمن عواطفنا وذكرياتنا . فأنا أقول «أنا» أحب والدى ، و «أنا» أحب عملى ، و «أنا» أكره فلانا من الناس ، و «أنا» أحب صديقى فلانا وكذلك أعتقد أننى «أنا» أحب العدل وأكره الظلم ، وأحب المساواة بين الفقراء والأغنياء ، وأعتقد كذلك أننى «أنا» احترم من يفوقنى عقلا ومقدرة ، وأننى «أنا» لا أغار منه . هذا « الأنا » هو الجانب الظاهر من الشخصية ، وتقصد بهذا أنه ظاهر لى «أنا» ويتأثر « الأنا » بالعوامل اللاشعورية من ناحية ، وبالعالم الواقع من ناحية أخرى . ففي عالم الواقع تجد المجتمع بتقاليده وقوانينه وعلاقاته وأفراده ، وتجد فيه كذلك الأزمنة والأمكنة والأشياء ، ومختلف المؤثرات التي ندركها بحواسنا ، وتتأثر بها تأثرا يمكننا من استعادتها ومن التأثر بها في خبراتنا التالية .

وإذا تتبعنا الطفل من وقت ولادته الى أن يكبر ، وجدنا أن «الأنا» تنمو تدريجيا بتقدم السن ، وذلك لتعدد الخبرات ، ولاستمرار تبادل التأثير

والتأثر بين الشخص والأشخاص الآخرين ، وكذلك بينه وبين مختلف أجزاء البيئة التي يتعامل معها . وقد سبق أن أسهبنا في هذا عند تحدثنا عن تكوين المرء فكرته عن نفسه ، وتكوين عاطفة اعتبار الذات . ويلاحظ أن الطفل الصغير من الناحية النفسية عبارة عن مجموعة من الدوافع والنزعات التي تتجه الى التعبير عن نفسها عن طريق الاتصال بالعالم الخارجى ، فيعبر دافع الجوع عن نفسه بالرغبة فى الشبع عن طريق مص ثدى الأم ، وبهذا يتصل الطفل بعالم الواقع اتصالا يصحبه ارتياح واشباع وسرور . وأحيانا يترتب على الاتصال بالعالم الخارجى تألم وعدم ارتياح . فاذا دفع حب الاستطلاع الطفل الى أن يلمس اللهب ، فإن النتيجة ألم وعدم ارتياح . وهكذا يبدأ الطفل منذ اللحظة الأولى يتصل بأجزاء العالم الخارجى اتصالا يوقفه على خصائص أجزاء هذا العالم . فهذه أشياء متحركة ، وتلك ساكنة ، وهذه حية ، وتلك ميتة ، وهذه قوية وتلك ضعيفة ، وهذه مؤلمة ، وتلك سارة ، الى غير ذلك من الخبرات التي تساعد على أن يكون لنفسه فكرة عن نفسه متميزة عن فكرته عن العالم الواقعى المحيط به . ومعنى هذا ان خبرات الطفل الأولى ، وهى خبرات احساسية صرف ، لا يميز فيها بين هذه الخبرات والمؤثرات التي تحدثها ؛ أى أنه لا يميز بين هذه المؤثرات ونفسه ككيان مستقل قائم بذاته يتأثر بمؤثرات محيطة به مستقلة عنه ، ويأتى هذا التمييز متأخرا ، ويساعد على الوصول اليه تعدد الخبرات وانتظامها وما سبق أن أشرنا اليه من وحدة الاسم ووحدة الجسم ، وبتكرار التفاعل بين الفرد والأشخاص الآخرين ينمو الجانب الاجتماعى « للأنا » ، ويلاحظ أن أقوى عوامل التفاعل الأولى هى الأم ثم الأب .

فكان « الأنا » قد تميزت عن الطاقة الحيوية الغريزية بعد اتصال هذه بعالم الواقع ، وتنصف الأنا بأنها شعورية ، ويقصد بهذا أن مكوناتها يمكن الشعور بها ، أو بآثارها ، يضاف الى ذلك أنها عادة منطقية معقولة . فهى تميل الى ترتيب النتائج على مقدماتها ترتيبا منطقيا . وهى خلقية كذلك ، اذ أنها تميل عادة الى أن تكون تصرفاتها فى حدود المبادئ الخلقية التي

يقرها عالم الواقع ، وتجدها مقتنعة بأنها تميل الى الصدق والعدل والمساواة والأمانة وما الى ذلك . وتتصف «الأنا» فوق هذا بأنها حلقة الاتصال بين الطاقة الغريزية والعالم الخارجى ، فـ «الأنا» هى التى تتصل بعالم الواقع لتحقيق النزعات الغريزية بالصورة التى تراها خلقية معقولة . وفوق كل هذه الصفات فان «الأنا» هى التى تتصل اتصالا مباشرا بعالم الواقع ، ويلاحظ أن «الأنا» تغفل فى ساعات النوم .

هذه هى الصفات الأساسية «للأنا» ، فهى شعورية ، منطقية ، خلقية ، تتصل مباشرة بعالم الواقع ، وتعمل كحلقة اتصال بين النزعات الغريزية وعالم الواقع ، ثم انها تغفل فى ساعات النوم .

الذات العليا :

أشرنا فى تكوين «الأنا» الى التفاعل الذى يحدث بين الطاقة الغريزية من ناحية وعالم الواقع من ناحية أخرى ، وأشرنا الى الدور الهام الذى يلعبه الوالدان فى تكوين الأنا . ونتيجة هذه العلاقة الخاصة المركزة — وهى علاقة الوالدين أو من يقوم مقامهما بالطفل — أن يتكون بحسب رأى «فرويد» مركب آخر اسمه الأنا العليا أو الذات العليا ، وترجع أهمية الوالدين الى كونهما سلطة ثابتة فى السنوات الاولى ، ووظيفة هذه السلطة توجيه السلوك ، فقد يرغب الطفل فى القيام بعمل ما ، فيمنعه والداه برغم تشوقه للقيام به . وقد يرغب الطفل على الاتيان بعمل ما برغم صدوفه عنه . ويتعرض الطفل فى هذا كله للشواب والعقاب ، والمدح والذم ، والرضا والسخط . فيحدث مثلا أن يرغب الطفل فى الحصول على الحلوى أو على النقود ، أو فى الاطلاع على عورة غيره ، أو فى كشف عورته للناس ، فيقوم الأب — أو من يحل محله — بمنع الطفل وزجره . كذلك يقوم الأب بتشجيع الطفل واثابته عند اتيانه أنواعا أخرى من السلوك ، وبعض هذه الانواع قد يكون مغايبا لرغباته ، وبعضها قد يكون عكس ذلك .

بعد هذا يصبح لدى الطفل فى المراحل الاولى تقديرات لأنواع السلوك قائمة على تقديرات والديه لها ، وقائمة كذلك على توجيههم اياه . ويحدث

في الوقت نفسه أن يكون الطفل معجبا بوالده لأنه في نظره أقوى ما في الوجود ، وفوق هذا فإنه يجب والده لأنه السبب في اشباع الكثير من حاجاته ورغباته . لهذا يقوم الطفل بتقمص شخصية والده تقمصا يترتب عليه توجيهه لسلوك نفسه ، وتوجيهه لسلوك غيره ، فإذا انكشفت عورته بدت عليه علامات الخجل ، ويسلك كما لو كان يزر نفسه على هذا . وبعبارة أدق فإن في نفسه جانبا هو عنصر السلطة الممتصة ، وهو الذي يقوم بعملية الزجر والتوبيخ . وهذا الجانب تمثله في حياة الواقع سلطة الوالد ، أو من يقوم مقامه .

فكأن الإنسان ينصب على نفسه من نفسه سلطانا يقوم من النفس مقام الأب ، وهذا المركب الجديد سميناه الذات العليا ، وينشأ بالتميز عن الأنا عن طريق علاقتها بالأب أو من يمثله . وتجد الطفل وهو صغير يوبخ اخوته على ما يصدر منهم ويستكره من أفعالهم ما يستكره عادة والده ، فكأن الطفل يتقمص شخصية الأب أو يمتصها ثم يسقطها على سلوكه وسلوك غيره . ولهذا يكبر الطفل معتقنا لدين خاص هو دين والديه ، ولا يمكن عادة أن يسمح لنفسه بتغيير هذا الدين بغير أن يشعر بالاثم ، مع أن اعتناقه له ليس على أساس منطقي ، وإنما هو على أساس امتصاصه ضمن امتصاص شخصية الأب كذلك تجد للفرد مستويات خاصة لقيم السلوك أسبابها الحقيقية غير معروفة له .

وهذا المركب المسمى بالذات العليا مركب لاشعوري ، ويسميه «فرويد» في بعض المناسبات «بالضمير اللاشعوري» . والسرفى كونه لاشعوريا أنه يمثل الأب ، والأب محبوب ومكروه في نفس الوقت . فهو محبوب لأنه يقوم بالمنح والثواب والرعاية والحماية ويشعر بالأمن . ثم انه مكروه لأنه يقوم بالمنع والعقاب والتوبيخ ، ولأن الطفل يشعر ازاء قوته بالقصور والنقص فالذات العليا مركب متناقض العناصر ، والنفس الشعورية (الأنا) لا تقبل التناقض . ولهذا كانت الأنا العليا مركبا لاشعوريا .

يلاحظ هنا أننا أشرنا الى أهمية الوالد — أو من يقوم مقامه — في تكوين الذات العليا بنوع خاص ، وأشرنا اليها كذلك في تكوين الأنا . غير

أن الذات العليا لا تمثل من الوالد الا جانب السلطة التي تقوم بضبط السلوك وتوجيهه وتنظيمه ، ولا تسمح للنزعات الغريزية بالتعبير عن نفسها الا بمقدار وفي صورة خاصة . ونذكر كذلك أن «الأنا» تكونت بالانفصال من النزعات الغريزية بعد اتصالها بعالم الواقع بمختلف مركباته ، ومن بين هذه المركبات الوالد . ثم يحدث عن طريق الخبرة بالوالد انفصال آخر لجزء من الأنا ، ويصبح هذا الجزء الجديد المتميز رقبيا على الأنا . وفي نفس الوقت يكون رقبيا على النزعات الغريزية المختلفة . وهذا الجزء المتميز يكون لاشعوريا لعدم ارتياح النفس الشعورية الى سلطته المستبدة . هذا الجزء يمثل الوالد من حيث هو مصدر للسلطة ، ويعمل داخل النفس كسلطان عليها وهو الذي سميناها بالذات العليا أو الأنا العليا أو الضمير اللاشعوري .

ويمكننا أن نلخص الصفات الأساسية للأنا العليا بأنها الناقد الخلقى الأعلى الذي يشعر الأنا بالخطيئة . وهي شديدة التمسك بالمبادئ الخلقية . وهي نتيجة التميز عن النفس الشعورية ، وبالرغم من هذا ، فانها تسيطر عليها ، وتنظم العلاقة بينها وبين الطاقة الغريزية ، مع بقائها في المستوى اللاشعوري .

الهي :

قلنا : ان الطفل الصغير يمكن اعتباره من الوجهة النفسية مجموعة من الدوافع الغريزية . ثم أوضحنا كيفية تكون الأنا وكيفية تكون الأنا العليا . وبيننا أن نتيجة هذا كله تنظيم العلاقات بين الطاقة الغريزية من ناحية ، والأنا من ناحية أخرى ، وبتكوين كل من الأنا والأنا العليا لا يقضى على المنابع الأساسية للدوافع الغريزية ، وانما تظل هذه حية مندفعة للتعبير عن نفسها . ولا يمنعها من التعبير عن نفسها الا « الأنا العليا » والى حد ما «الأنا» . ويرى المشتغلون بالتحليل النفسى وعلى رأسهم « فرويد » ، أن هذا الجانب يلعب دورا هاما في حياة الانسان ، ويسمونه « الهي » ومن خصائصها أنها لاشعورية ، وأنها لا تتجه وفق المبادئ الخلقية ، وانما تسير على قاعدة تحقيق اللذة والابتعاد عن الألم (1) . ثم انها لا تتقيد بقيود منطقية . ومن

(1) Pleasure Pain Principle.

مركباتها النزعات، الفطرية الوراثية والمكبوتة . ويقال بحسب رأى « فرويد » : ان أهم هذه المركبات هي النزعة الجنسية .

الأنا والقوى المؤثرة عليها :

نرى مما تقدم أن جانب الشخصية الظاهر لنا ، والذي يمثلنا أمام أنفسنا ، ونحب أن يمثلنا امام الناس هو الأنا . فالأنا هي الجانب الذى يتصل اتصالا مباشرا بعالم الواقع . غير أن الأنا تتعرض لعوامل ثلاثة كل منها فى غاية القوة . فتعرض من ناحية لعالم الواقع بقوانينه وتقاليده ومنطقه ، ومستوياته الخلقية ، والعلاقات الانسانية ، كما يتغرض لما فى عالم الواقع من المثيرات والمغريات وأغلب هذه المغريات تستدعى استجابة من النزعات الغريزية . وتقع الأنا فوق هذا تحت الحاح النزعات الغريزية المختلفة ، التى تريد أن تعبر عن نفسها عن طريق الأنا . فهذه نزعة اعتدائية ، وتلك نزعة جنسية ، وغير ذلك من نزعات أخرى ، كلها تتدافع للتعبير عن نفسها ، وتجد من عالم الواقع ما يمنعها من قوانين ، وما يجذبها من مغريات ومثيرات ، وكل من المنع والاستشارة يحدث عن طريق الأنا . وبالإضافة الى هاتين القوتين الكبيرتين ، قوة عالم الواقع ، وقوة عالم الهى . وتتعرض الأنا لقوة ثالثة ، هى قوة الذات العليا التى تقوم بمنع الأنا من الاستمتاع بكثير من لذات اشباع النزعات الغريزية الملحة . وتقوم الذات العليا بهذا المنع معاونة فى ذلك ما فى المجتمع من تقاليد وآداب ، ومقاومة فى ذلك ما فى المجتمع من مثيرات ومغريات . وتقوم الذات العليا باشعار الذات بحقارتها لمجرد احساسها احساسا خفيا بالرغبة فى تحقيق النزعات الغريزية . وهذا قد يفسر ما يسمى الشعور باللاثم أو الشعور بالخطيئة .

ولهذا كله كانت مهمة الأنا أن تحصل على حالة اتزان بين مجموعات القوى الثلاث . فعلى الأنا أن تعبر عن نزعاتها ودوافعها الغريزية تعبيرا يتفق مع ما فى المجتمع من تقاليد ونظم بغير أن يشير سخط الذات العليا . فإن أراد المرء أن يعبر عن نزعاته الجنسية فعليه أن يفعل ذلك فى الحدود

التي يعترف بها المجتمع بقوانينه وشرائعه وتقاليده بصورة لا تثير في الانسان تأنيبا داخليا أو شعورا بالخطيئة والاثم . وكذلك اذا اعتدى على شخص ، فإن الرد على هذا الاعتداء تمثله حاجة ملحة في الهى . ويجب أن يتم بالصورة التي تقبلها النظم الموضوعية ، والتي ترضى عنها الأنا العليا . على أن هذا ليس ممكنا دائما بهذه الصورة البسيطة . فقد أغتصب مالا ، ولكيلا أشعر بالخطيئة أبرر العمل بينى وبين نفسى . فأصل الى حالة ارتياح أو يعود الأنا الى حالة اتزان . وقد يقتر البخيل في الاتفاق مما عنده ، فيلومه الناس وهم ينتمون الى عالم الواقع ، فينسب البخل الى الناس جميعا ، وبذلك تستريح الأنا ، ولا تعير لوم الناس أى اهتمام . وهناك حيل نفسية متعددة تصل بها الأنا حالة الاتزان .

الحيل العقلية اللاشعورية :

ويتم حدوث الاتزان للنفس اللاشعورية بأساليب تتصف عادة بأنها أساليب لاشعورية . فاذا زارنى في بيتى شخص لا أحبه فانه يحدث أحيانا أن أبالغ في اكرامه والترحيب به وتؤدى المبالغة في الترحيب وظيفية أساسية وهى تغطية ناحية يخشى ظهورها . وهذه الناحية التى يخشى ظهورها تلج في الظهور . ولهذا يلزمنا أن نتشدد في تغطيتها حتى لا تظهر . ونجد أحيانا شخصا يظهر أمام الناس بمظهر التعبد الشديد ، فاذا أتيت له فرصة التعبير عن شهواته ونزعاته فانه قد يفرق في هذا اغراقا شديدا . فالتشدد في التعبد والتمسك الظاهرى بالمبادئ الأخلاقية يقوم بتغطية الشهوات التى تاجح في التعبير عن نفسها ، ويؤدى وظيفية أخرى ، هى محاولة التغلب على هذه النزعات .

كذلك قد يكون لديه نقص فيعوض هذا النقص دون أن يشعر بأنه يقوم بذلك . فتجد المقصرين في دراستهم يعوضون هذا بتزعم الطلاب في الحركات البعيدة عن النواحي الدراسية ، كالحركات السياسية والرياضية وغير ذلك . فكأن العقل يقوم من تلقاء نفسه بدون أن يشعر بتعريض نواحي النقص . وبذلك يتخلص العقل من الشعور بالقصور أو بالنقص بطريقة ايجابية .

ومن أساليب الهرب النسيان . فينسى المرء عادة الأشياء التي لا يرغب في تذكرها ؛ فان كان لدى ميعاد مع صديق لأسدد له ديننا على فائني أميل دون أن أشعر — الى نسيان هذا الميعاد . وتجد الانسان على وجه العموم يتذكر ما له من حقوق وينسى عادة ما عليه من التزامات وواجبات . وينسى الانسان عادة الحوادث المؤلمة ، ولهذا نسي الضابط — الذي سبق أن أشرنا اليه — حادث الكلب . وللنسيان وظيفة هامة ، وهي أنه يحرر الانسان من الذكريات المؤلمة فيتفرغ بجهده لأعماله اليومية العادية .

ويهرب كثير من الناس عن طريق القراءة الكثيرة . فهي تبعدهم عن الاتصال بحياة الواقع ، وتخلق لهم برجا عاجيا يعيشون فيه مستريحين ، وينظرون منه عادة بشيء من الازدراء الى الواقعيين . وكذلك يهرب الانسان بالنوم ؛ فبعض الناس يستغرق في نوم عميق اذا واجهته مصيبة أو مشكلة صعبة الحل . ويهرب بعض الناس من حياة الواقع باستعمال المخدرات والمسكرات .

ويصل الهرب الى أقصاه في حالات فقد الذاكرة والاعماء . فاذا وجد بعض الناس في موقف يقابلون فيه صدمة نفسية عنيفة ؛ فانهم يصابون أحيانا بحالة اغماء تعفيهم من شدة الألم ، وتجلب اليهم عطفًا كثيرا من المحيطين بهم ومن حالات فقد الذاكرة ^(١) حالة « انسل بورن » ، وهو قسيس أمريكي متجول . خرج من بيته في يوم « ١٧ يناير سنة ١٨٨٧ » ، وذهب الى المصرف في بلده « بروفيدانس » . ثم ركب الترام ولم يعد الى بيته في ذلك اليوم . ثم ظهر في « نوريستون » بمقاطعة « بنسلفانيا » رجل يطلق على نفسه اسم « ا . ج . براون » وكان قد أجر منذ ستة أسابيع دكانا لبيع الأدوات الكتابية والحلوى والفاكهة . وكان يدير تجارته بهدوء ولا يبدو عليه أي شذوذ أو انحراف . وفي صبيحة يوم « ١٤ من مارس » استيقظ من نومه متعورا ، وأيقظ سكان المنزل وطلب اليهم أن يخبروه أين يكون ، وذكر أن اسمه « انسل بورن » وانه لا يعرف عن التجارة شيئا ، وأن آخر ما يذكره هو انه

(1) Bernard Hart : The Psychology of Insanity. P. 49.

سحب نقودا من مصرف بلدته « بروفيدانس » ، ويبدو له أن ذلك حدث بالأمر فقط . في هذه الحالة فقد « انسل بورن » قدرته على تذكر اسمه ومعرفة شخصيته ، وتحول فجأة الى شخصية أخرى اذا وازنا بينها وبين الشخصية الأولى نجد أنها أميل الى الحياة الواقعية منها الى المثالية ، ونجد أنها أميل الى التحرر منها الى التقيد بقيود الدين ، ونجد كذلك أن مسؤولياتها أقل من مسؤوليات الشخصية الأولى . فكان التغيير الذي صحبه فقد الذاكرة كان فيه هرب تام من حياة التقيد والحرمان والبعد عن ملذات الحياة الواقعية . وهناك أمثلة كثيرة لحالات فقد الذاكرة أشرنا الى بعضها في مكان آخر

وللهرب أساليب أخرى كالنكوص (أو التراجع) . فاذا اصطدم انسان بمشكلة يصعب عليه التغلب عليها ، فانه يرتد أحيانا الى الوراء . ومعنى هذا أنه يرتد في الغالب الى أسلوب اعتقاده في طفولته . والسرف في ذلك أن الشخص اذا واجه مشكلة ولم يتمكن من التغلب عليها ، فانه يفقد اطمئنانه أو اتزانه ، ، فيرجع الى أسلوب قديم كان قد اعتاد أن يسلكه فيحصل على الطمأنينة . فالذين يفشلون في الحب تجدهم عادة يضربون عن الزواج ، ويقنع الواحد منهم بأنه يفضل أن يعيش في كف أمه أو احدى قريباته أو سيدة عجوز تعطف عليه وتقضى له حاجته . فكان الاصطدام في أثناء محاولة تحقيق غرض حيوى من أغراض الحياة قد أدى الى رجوع الشخص بنفسه الى حالة الطفولة التي يكون الانسان فيها في حماية أمه أو من يقوم مقامها . وبعض الناس اذا اصطدم بعائق لا حيلة له في التغلب عليه ، فانه قد يبكى . والبكاء في حياة الأطفال أكثر منه في حياة الكبار . وهو أسلوب يساعد على اجتذاب معونة المحيطين به وعطفهم . ومن أساليب النكوص الاغراق في أحلام اليقظة فهذا أسلوب يغلب على حياة الأطفال أكثر مما يغلب على حياة الكبار .

ويقال : ان من أساليب النكوص اغراق المرء اذا فشل في حياته الحالية

(١) أنظر كتاب أسس الصحة النفسية للمؤلف ، الطبعة الرابعة

(ص ١١٨ ، ١٩٩)

في التحدث عن الماضي المجيد الذي عاش هو فيه ، أو عاش فيه آباؤه وأجداده ومن أساليبه كذلك ما نشاهده في الفتى الذي يتطلع في اختياره زوجته الى صفات الأم الحنون . ويلاحظ أن كثيرا من مشكلات الأزواج مع زوجاتهم ينشأ عن موازنة الزوج بين زوجته وأمه . كذلك تتطلع الفتاة أحيانا في اختيارها زوجها الى أب شفيق . ونلاحظ كذلك السيدة التي تكبر سنها ، فتميل الى الظهور بمظهر الفتيات الصغيرات في الملابس والحركات والحديث ونعمة الصوت .

ويعتبر « يونج » أن النكوص هو الأسلوب العام الوحيد الذي ينشأ عندما يقابل المرء صعوبات يعجز عن التغلب عليها . ويعزو « يونج » الظواهر النفسية المرضية وشبه المرضية الى أنها ألوان من الارتداد الى أسلوب ينتمي الى الطفولة . ولهذا ترى أن حدوث الأحلام بأنواعها العرضية، منها والمرضية وكذلك الظواهر الهستيرية والعصية بمختلف أنواعها ، يمكن تفسيره على أساس الارتداد الى حالات الطفولة .

وهناك أساليب يمكننا أن نسميها أساليب دفاعية . فمن هذه مثلا الاسقاط، ومعناه أن الصفة المفقودة التي يتصف بها شخص ، لا يعترف عادة بأنها في نفسه ، وانما يراها منعكسة في الآخرين ، فتجده يصف الآخرين بما في نفسه . فكثيرا ما تجد البخيل يصف أغلب الناس بأنهم بخلاء، وهكذا تجد المنافقين والمنقلبين في آرائهم وغيرهم . ونلاحظ أحيانا مناقشة تجرى بين اثنين ، فيدعى أحدهما على الآخر أنه غاضب ، واذا تأملت قليلا تجد أن المدعى هو الغاضب . ويحدث أحيانا أن تجد سيدة دميمة الخلقة تدعى أن الرجال يتبعونها ويخطبون صداقتها ، واذا بحث الأمر تجد أن شيئا من هذا لم يحدث ، وانما هي رغبة كامنة في نفسها تراها منعكسة في الخارج ، فتتوهم في الرجال اتجاهات تطابق ما في نفسها من ميول واتجاهات .

وللاسقاط وظيفتان ، أولاهما : أنه يدفع عن الانسان تهمة الاتصاف بصفة معينة . وثانيتها : أنه في حالة عجزه عن دفع التهمة يشعر بأنه يشبه الآخرين في هذه الصفة . فعندما تتحقق الوظيفة الأولى ، تشعر « الأنا » بكثير

من الراحة لأنها تشعر أنها أرقى ممن حولها . وعندما تتحقق الوظيفة الثانية
تشعر الأنا بالراحة أيضا لأنها تشعر أنها لا تقل عن الآخرين ، فلا تجد
مجالا الى احتقار نفسها بالنسبة اليهم ، ويحقق الأسلوب الدفاعي في
نفس الوقت هروبا من تألم الأنا بعدم الاعتراف بالحقيقة المرة .

ومن الأساليب الدفاعية كذلك التبرير . ويقصد به تقديم تعليلات تبدو
للعقل منطقية مقبولة لأمر أسبابها الحقيقية انفعالية . فاذا وقعت اهانة من
تلميذ لمدرسه ، فقد يتغيب المدرس فيوقع على التلميذ عقوبة شديدة جدا .
فاذا ناقشت المدرس قال لك انه لا يقصد من هذا الا اصلاح التلميذ ، والواقع
أن جزءا من التشدد يرجع الى الغيظ والانتقام ، ولا يرجع الى مجرد الرغبة
في الاصلاح . وكثيرا ما يهمل الانسان أداء واجب المجاملة نحو صديق ، فاذا
عابه الصديق ، حاول أن يتخلص بتقديم أعذار تبدو معقولة ، حتى يبرئ
نفسه ويبرر تقصيره . ونعلم أننا نرى في الذين نجبهم صفات حسنة ، ونبرهن
على وجودها عادة بأدلة تبدو منطقية معقولة . ونرى في نفس الوقت في
الذين نكرهم صفات كثيرة سيئة ، ونبرهن على ذلك بأدلة تبدو منطقية معقولة
ولكن السرف في الحالة الأولى يرجع غالبا الى المحبة ، وفي الحالة الثانية يرجع
غالبا الى الكراهية . كذلك انتماؤنا لا يكون عادة مبنيا على أساس منطقي ،
ومع ذلك تجدنا ندافع عما ندين به دفاعا يبدو مليئا بالمنطق والمعقولة . كذلك
نجد الحزبية والطائفية والتحيز وما الى ذلك موضع دفاع ممن يتصفون بها .

والتبرير عملية يقوم بها العقل في أغلب جوانب الحياة اليومية . وهو
مصدر الراحة والاتزان للأنا ، لأن الأنا تميل الى أن تكون منطقية معقولة.
ونعلم أن الدوافع الأساسية الشعورية واللاشعورية التي تدفع الانسان
للقيام بالسلوك ليست دوافع منطقية ، وانما هي دوافع «غريزية» انفعالية .
لهذا كانت الأنا في حاجة الى التبرير والى الخداع الذاتي بأن السلوك قائم
على المنطق والمعقولة ، وليس قائما على مجرد الدوافع الانفعالية .

ويلاحظ أن التبرير فيه دفاع عن الذات وهرب من اللوم . ونلاحظ
عادة أن الحيل النفسية تكون في أغلب الأحيان هروبية دفاعية في نفس

الوقت . ففي النسيان هرب من الواقع وحماية للنفس من آلامه . وفي التعويض هرب من الشعور بالنقص واتجاه ايجابي لاثبات الذات . وليس من المستحسن فصل الحيل النفسية الى أنواع بعضها هروبي صرف وبعضها دفاعي صرف . فالنوعان يوجدان عادة مختلطين الا في القليل النادر . كما أنه ليس من الممكن حصر كل الحيل النفسية اللاشعورية في هذا المجال الضيق ولهذا اقتصرنا على أهمها .

مراجع للقراءة

- | | |
|---------------------------|--------------------------------------|
| أسس الصحة النفسية : | للدكتور القوصى . |
| أحلام اليقظة : | تأليف جريرين ، وترجمة ابراهيم حافظ . |
| علم النفس الفردي : | للدكتور اسحق رمزي . |
| مشكلة السلوك السيكوباتي : | للدكتور صبرى جرجس . |
| ما فوق مبدأ اللذة : | ترجمة الدكتور اسحق رمزي . |
| التحليل النفسى : | ترجمة الدكتور اسحق رمزي . |
| عيادات العلاج النفسى | للدكتور محمد خليفة بركات . |

الفصل السادس عشر

مدارس التحليل النفسى

فرويد (١٨٥٦ - ١٩٣٩)

يعتبر المؤرخون النفسانيون أن أكبر مكتشف ظهر في ميدان علم النفس هو « سيجموند فرويد ». وقد قال عنه « مكدوجل » : انه أعظم عالم نفسى ظهر بعد « أرسطو ». وقد أمضى « فرويد » السنوات الخمسين الاخيرة من حياته فى البحوث الطبية والنفسية ، وكشف فى خلالها الكثير من مجاهل النفس ، ووضح كثيرا عما يسمى بالاشعور أو العقل الباطن . أما الذين سبقوه فقد عكفوا على دراسة العقل الواعى أو الشعور ، واستقصاء ما يسهل ملاحظته من تذكر وتفكير وتصميم ، وانشراح وانقباض ، وغير ذلك من الأمور التى لا تستعصى ملاحظتها بالطرق المباشرة المألوفة . أما « فرويد » فقد كان أول من اتجه ذهنه الى البحث فى « منطقة من مناطق » العقل لا يمكن ملاحظتها بالطريقة المألوفة المباشرة . وشأن العقل الباطن شأن أغلب الموضوعات العلمية . فقد ظهر عرضا وبطريقة متناثرة فى كتابات العلماء والفلاسفة والأدباء ممن سبقوا « فرويد » ، ومن هؤلاء « هارتمان » ، و « لينتز » و « شوبنهاور » ، و « روبرت لويس ستيفنسون » . ولكن ما ذكره هؤلاء جميعا كان تافها بالنسبة لما جاء به « فرويد » . حتى أن العلماء يعتبرون أن كشف العقل الباطن انما هو نتيجة مجهود رجل واحد وهو « فرويد » .

بدأ « فرويد » حياته كطبيب ثم سافر الى فرنسا ليدرس الأمراض العصبية بجامعة « باريس » على الدكتور « شاركوه Charcot » وبعد أن أتم دراسته عاد الى مزاوله مهنة الطب فى « فيينا » ، واشترك فى معالجة بعض الحالات العصبية مع زميل له اسمه « بروير Brueer » . وكانت لهما ملاحظات هامة ، منها أن بعض الحوادث

البعيدة التي وقعت للشخص في طفولته تشغل عقله باندفاع والحاح عجيبيين . ولهذا يتذكر الشخص بوضوح في أثناء التنويم المغناطيسي . وكان «بروير» يلجأ الى التنويم المغناطيسي كطريقة لمعالجة الأمراض العصبية ، ولاحظنا كذلك أن الحوادث البعيدة التي تكون سببا في الأعراض ، تكون منسية نسيانا تاما في حالة اليقظة . كذلك وصل الطبيبان الى أن يتحدث مع المريض في هذه الحوادث قد يؤدي الى تحسن الحالة ، ففي أثناء التحدث تكون هناك محاولة للربط بين الحوادث بعضها وبعض . ويحدث كذلك أن تظهر تعبيرات انفعالية شديدة مصاحبة لتذكر هذه الحوادث . وقد أرجع الطبيبان شفاء الحالات وتحسنها الى هذا التفريغ الانفعالي . وكانت النتيجة التي وصل اليها أن الاضطرابات العصبية المختلفة ، تنشأ من صدمة نفسية معينة لا يكون معها تعبير كاف عن الانفعال لهذه الصدمة ، مما يؤدي الى الاضطراب العصبى . وعلى هذا تكون الطريقة الطبيعية للعلاج هي استرجاع الصدمة مع التنفيس عن الانفعال . ولا يحدث هذا في نظر «بروير» الا عن طريق التنويم المغناطيسى .

وقد اختلف «فرويد» و «بروير» بعد ذلك وافترقا ، ولعل معرفة السر في اختلافهما تؤدي الى الوقوف على أهم أركان نظرية فرويد . وقبل أن نبين هذا يصح أن نذكر أولى الحالات التي وجهت «فرويد» الى البحث فيما يسمى بالعقل الباطن والى الوصول الى أهم أركان نظريته (١) .

كان «فرويد» وزميله «بروير» يعالجان فتاة مصابة بالشلل في بعض أطراف الجسم ، وفقد الاحساس في النصف الأيمن من جسمها ، وأصيبت كذلك بالخوف من الماء خوفا وصل بها الى عدم المقدرة على الشرب . وقد أرادت أن تؤدي الصلاة في يوم من الأيام ، وكانت اذ ذاك في حالة رعب شديد ، وحاولت أن تتذكر قطعة للتلاوة بلغتها الأصلية (الألمانية) فلم تتمكن من ذلك ، ولم تتذكر الا قطعة باللغة الانجليزية كانت قد حفظتها من زمن بعيد .

(١) سبقت الاشارة الى هذه الحالة في كتاب اسس الصحة النفسية

للمؤلف الطبعة الرابعة (ص ١١٤) .

وبعد أن انتهت من أداء الصلاة نسيت لغتها الألمانية ، ولم تتكلم بعد ذلك إلا باللغة الانجليزية .

اتجه الفحص والعلاج للناحية الجسمية أولا ، وبعد أن ثبت أن ليس هناك عامل جسمي يرجع اليه ظهور هذه الأعراض ، عمد «فرويد» الى أساليب أخرى كالمحادثة واستعمال الإيحاء تحت تأثير التنويم المغناطيسي . وتذكرت الفتاة وهي في حالة النوم المغناطيسي أنها كانت ذات مرة تعبئة منهكة ، وكانت تشعر بعطش شديد ، وكان هذا بعد تريضها لوالدها الذي كان مريضا وفي حالة خطيرة . كانت الفتاة جالسة اذ ذاك في حديقة المنزل ، فأعطتها مربيته كوب ماء لتشربه ، فأصاب البنت جزع وتقرز شديد لأنه سبق لها أن رأت كلبا يلعب من هذا الكوب . ولكن التي قدمت اليها الكوب مربيته الانجليزية ، وكانت تخافها وتكرهها في قرارة نفسها ، ولكنها لا تقوى على أن تعصى لها أمرا . فشربت الماء متأففة متألمة ، وضغطت على شعور التقرز ، ثم نسيت الحادث نسيانا تاما . وبالرغم من نسيانها للحادث الأصلي ، ظلت تتقرز من رؤية الماء ، ولا تقوى على تجرعه ، ولكن بعد أن ذكرت كل هذا وهي في حالة النوم المغناطيسي ، طلبت كوب ماء وشربت منه بشغف شديد . واستيقظت وهي في هذه الحالة ، وتمكنت منذ ذلك الوقت من التمتع بشرب الماء ، ومن التكلم بلغتها الأصلية .

يلاحظ أن التقرز ارتبط في ذهن الفتاة بكوب الماء ، ثم ان المربية هي التي قدمت الماء اليها . والفتاة بين أمرين ، فهي اما أن تقبل الكوب منها متأثرة بدوافع الطاعة والتأدب والخوف ، أو ترفضه مجيبة بذلك نداء طبيعيا ، وهو رفض ما تتقرز منه نفسها . وهنا حدث في نفس الفتاة صراع عنيف بين أمرين كلاهما يشق عليها التغلب عليه . فأحدهما الطاعة وقبول الماء الذي تعافه نفسها في اثناء لعق منه الكلب . والآخر رفض هذا الماء والتعرض لظهور بمظهر عدم التأدب والعصيان لمربية تخافها أشد الخوف . وانتهت المعركة بقبول الماء وشربه ، وكبتت الفتاة رغبتها الطبيعية في رفض ما تجزع منه نفسها . وانتهت المعركة النفسية في هذه الحالة لم يكن الا انتهاء مؤقتا .

فالتقزز الطبيعي مما تعافه النفس لم يمت ، وانما أصبح في حالة لاشعورية وظل مع هذا قويا فعالا ، وظهرت فاعليته في أن أصيبت البنت بمرض عصبي من أعراضه عدم القدرة على شرب الماء أيا كان . وللحالة ظروف وملابسات وأعراض وعوامل عدة نكتفي بما ذكرناه منها .

النتيجة الهامة التي توصل اليها « فرويد » وزميله — وكان أغلب الفضل فيها لفرويد — هي أن سبب المرض ليس جسمانيا ، وانما هو سبب نفسي ، وأن العوامل النفسية الفعالة لم تكن شعورية وانما كانت لاشعورية ، وأن هذه العوامل كانت منسية نسيانا تاما في الحياة العادية اليومية ، وأن هناك قوة كابتة تمنع هذه العوامل اللاشعورية من المظهر في الحياة العقلية الشعورية ، وأن أساس العلاج كان ابراز هذه العوامل اللاشعورية في الحياة العقلية الشعورية ، وادماجها فيها .

أما الخلاف بين « فرويد » و « بروير » ، فانه ينصب على ناحيتين: الأولى أن « فرويد » رأى أن يستغنى عن استعمال التنويم المغناطيسي في كثير من الحالات ، وذلك لصعوبات منها أن بعض المرضى لا يمكن تنويمهم ، ومنها أن بعض الأطباء لا يسهل عليهم القيام بعملية التنويم . وقد توصل « فرويد » الى أن ما يمكن كشفه بالتنويم يمكن سبر غوره بالمحادثة العادية من غير تنويم . وبهذا توصل « فرويد » الى طريقته في التحليل النفسي . وتتلخص الطريقة في أن يوضع المريض في حالة تراخ ، ويترك المريض أفكاره تنساب الواحدة بعد الأخرى ، ولا يتقيد في ذلك بأى قيد من قيود المنطق أو الآداب أو التقاليد أو الدين أو غيرها ، وانما يتحدث المريض عما يرد في ذهنه بدون قيد أو شرط ، وفي الواقع ليس من السهل أن يتحدث المرء بكل ما يجول بخاطره على هذه الصورة . ويتوقف انسياب التعبير على العلاقة التي تقوم بين المريض ومن يقوم بعلاجه .

أما الناحية الثانية فتنبص على ما كان يعتقد « فرويد » من أن الصدمة التي ينسب عنها المرض العصبي هي دائما صدمة جنسية . ويرى « فرويد » أن الغريزة الجنسية هي الدافع الأول الذي ترجع اليه مختلف نواحي النشاط الانساني . ويرى أن مكوناتها تظهر منذ الولادة ، وتمر في أدوار مختلفة حتى يصل

الانسان الى القدرة على التزاوج والتكاثر الذي لا يخرج عن كونه مظهرًا أساسيا من مظاهر الغريزة الجنسية .

مراحل النمو الجنسي عند فرويد :

وبحسب رأى «فرويد» تمر الغريزة الجنسية في مراحل ثلاث: المرحلة الأولى ويشترك الطفل فيها لذة (أو ألما) من الاحساسات الجسمية المختلفة، كالرضاعة والضم والتبرز والتبول وغير ذلك . وتسمى هذه المرحلة بمرحلة اللذة الحسية الذاتية . وتقسم هذه المرحلة عادة الى أدوار أدق من هذا . أما المرحلة الثانية فهي مرحلة عشق الذات أو النرجسية «Narcissism» ، نسبة الى الأسطورة اليونانية المعروفة ، وبطلها نرجس الذى أراد أن يتزوج من فتاة أحبها . فلما رأى صورة وجهه منعكسة فى الماء هام بحب هذه الصورة ، وانصرف عن فتاته التى أراد أن يتزوجها . ثم تأتى المرحلة الأخيرة ، وتتجه فيها الغريزة الجنسية بحسب رأى «فرويد» الى الآخرين . فيشعر الطفل بميل ايجابى نحو الآخرين من جنسه ، ثم يتحول هذا الميل فى النمو الطبيعى الى الغير من الجنس الآخر . ويقال : ان هذا كله يتم فى السنوات الست الأولى من الحياة، ثم تأتى فترة هدوء يقال ان الغريزة الجنسية تكون فيها فى حالة كمون ، ويستمر هذا الدور الكامن حتى أول المراهقة ، حيث تنشط الغريزة الجنسية وتبدأ تنضج فى الاتجاه الذى يودى الى تحقيق الوظيفة الجنسية فى صورتها الطبيعية الكاملة . ويرى «فرويد» وأتباعه وعلى رأسهم «ارنست جونز Ernest Jones» أن الفرد يكرر المرور فى الظواهر السابقة فى دور المراهقة . ففي هذا الدور صورة من اللذة الجسمية الذاتية ، وفيه صورة من عشق الذات ، ونجد فيه كذلك صورة من الميل الجنسى للبنين نحو البنين وللبنات نحو البنات ، ثم نجد بعد ذلك صورة من الميل الجنسى للبنين نحو البنات وللبنات نحو البنين . ويرى بعض أتباع «فرويد» أن النضج الجنسى فى دور البلوغ يتم بتكامل المكونات الجنسية المختلفة ، فتصبح أجزاء الجسم فى خدمة تحقيق الغريزة الجنسية الكاملة . فبعد أن كان الفهم مركز اللذة فى الطفولة الأولى ، يصبح التقبيل فى خدمة الغريزة الجنسية فى دور البلوغ .

ويرى « الفرويديون » أن بعض أجزاء الجسم يستبقى وظيفته كمركز أساسي أو ثانوي للذة طيلة الحياة . فمض الأصابع ، والتدخين ، وادمان الشرب ، وكثرة الكلام تعتبر في نظرهم أدلة على أهمية الفم كمركز للذة . ويعترض بعض علماء النفس على « فرويد » وأتباعه ، فيقولون : إن الفم مثلاً لا بد أن يكون نشاطه مصدر اللذة في الطفولة الأولى ، ذلك لأن نشاط الفم يؤدي وظيفة حيوية هي امتصاص الطعام ، ولا بد أن يكون الامتصاص لذيذاً حتى يدأب عليه الطفل ويكون هناك ضمان لاستمرار الحياة . وما يقال عن الفم يمكن أن يقال كذلك عن الشرح الذي يعطيه « فرويد » أهمية كبيرة كأحد مكونات الغريزة الجنسية في المرحلة الأولى ويمضى « فرويد » وأتباعه محللين أنماط السلوك بحسب هذه الآراء .

وقد قطع « فرويد » مراحل شاسعة في تشريح الشخصية الى مكوناتها التي سبق أن تحدثنا عنها ، وهي الأنا والذات العليا والهي ، كما أنه أول من تحدث عن العقدة النفسية ، وبين الدور الهام الذي تلعبه «عقدة أوديب» في حياة الانسان ، وأساس هذه العقدة في نظره هو حب الطفل لأمه ، ورغبته في الاستئثار بها ، وغيرته الشديدة من موقف أبيه منها ، مما يؤدي الى كراهية الوالد ، والرغبة اللاشعورية في القضاء عليه ، وعقدة « أوديب » منسوبة الى الأسطورة اليونانية المعروفة عن «أوديب» الملك الذي قتل أباه وتزوج بأمه ، ولم يكن بالطبع يعلم أن هذا أبوه أو تلك أمه ، وقد أنجب من أمه أطفالاً ، ولكن لما انكشف له أمر نفسه فقام عينيه عذاباً لنفسه . ويرى « فرويد » أن عقدة أوديب هي المكون الأساسي للرقيب أو الضمير اللاشعوري الذي يشعر المرء بخطاياها ، ويؤنبه ويعذبه على ما يصدر منه ، ويقابل عقدة أوديب في الذكور — بحسب هذا الرأي — « عقدة الكترا » في الاناث ، وأثاث هذه العقدة حب البنت لأبيها وكراهيتها لأمها في المراحل الأولى (١) .

(١) انظر كتاب : مبادئ التحليل النفسي للأستاذ «محمد فؤاد جلال» ،

الباين الحادى عشر ، والثانى عشر .

انظر كذلك : الملك أوديب لتوفيق الحكيم .

ولقد لقيت آراء « فرويد » في مجموعها ترحيبا لأنها مكنت من فهم الكثير من الظواهر النفسية ، ولكنها أثارت في نفس الوقت اعتراضات شديدة عليها لأنها نسبت الى الانسان كثيرا مما يشق عليه أن ينسبه الى نفسه ، ويرى « فرويد » وأتباعه أن هؤلاء المعارضين لا تفسر معارضاتهم الا على أنها نوع من المقاومة أو الكبت ، ولعل أطرف ما قدمه لنا « فرويد » هو تفسيره العلمى لظاهرة الأحلام .

الأحلام :

يعتبر « فرويد » أن أهم كشف وصل اليه هو وقوفه على الكثير من ظاهرة الأحلام ، ويرى أن الأحلام تشبه المرض العقلى ، لأن المرض العقلى فيه ابتعاد عن الواقع ، ثم اغراق فى خيالات وأفكار داخلية . كذلك يحدث فى أثناء النوم أن تنقطع الى حد كبير صلة الشخص بالعالم الخارجى ، فتجد الدوافع اللاشعورية فرصة لغزو النفس الشعورية ، ولا تجد فرصة للتعبير عن نفسها تعبيرا حركيا فتقف عند مرحلة الخيالات . ووصل « فرويد » الى أن هذه الأفكار والخيالات تجد بعض المقاومة ، فالرقيب الذى يعمل فى أثناء اليقظة والذى سميناه بالذات العليا ، يعمل أيضا فى أثناء النوم ، ولهذا لا تكون محتويات الأحلام الظاهرة صورة حقيقية لمحتويات اللاشعور ، ولهذا لزم القيام بتفسير الحلم ، أو بعبارة أخرى لزم تأويل هذه المحتويات الظاهرة ، فاذا كان الفرد يرى فى الحلم صراعا عنيفا بينه وبين حيوان كبير كثعبان أو أسد أو ما شابه ذلك فإن المحتويات الظاهرة للحلم هى الصراع مع الأسد ، ولكن بحسب رأى « فرويد » يكون الأسد رمزا للوالد ، والتغلب على الأسد رمزا للرجبة فى التغلب على الوالد .

ويحلم الانسان أحيانا أنه سقط فى هوة سحيقة لا قرار لها ، ثم يصحو فجأة فى حالة انزعاج شديد . وقد يكون المحتوى الكامن لهذا الحلم هو الخوف من الفشل فى الحياة ، أو السقوط فى أعين الناس أو الزلل الخلقى وهكذا نجد أن المخاوف والرغبات والذكريات المكبوتة لا تظهر فى الأحلام بصورة سافرة ، وانما تظهر بصورة مقنعة نحتاج معها الى تأويل الحلم من

محتوياته الظاهرة الى محتوياته الكامنة عن طريق فهم الرموز التي يتم فيها هذا التقنع ، وكذلك بالاشارة الى ما نعرفه عن الحياة العقلية لصاحب الحلم . ونذكر على سبيل المثال ما رأته فتاة في أحد أحلامها ، حيث رأت أنها مع امرأة ترتدى (فستانا) للسهرة يدل على شيء من الجاه والثراء ، وكانت هذه المرأة على شيء من الجمال وتميل الى شيء من الخلاعة ، وكانت في يدها كأس صغيرة بها شيء من الخمر ، وقد قامت الفتاة من نومها مسرورة لهذه الرؤيا ، واذا علمنا أن الفتاة لقيطة ، وأنها كانت متألمة أشد الألم في حياتها لأنها لا تعرف لها أما ، أدركنا السر في ارتياحها لهذا الحلم ، فقد عثرت فيه على أمها وبذلك حققت رغبة لا تجد سبيلا الى تحقيقها في الحياة الواقعية .

والأحلام كما يرى « فرويد » وأتباعه ، مجال لتحقيق الرغبات المكبوتة التي لا يمكن تحقيقها في حياة الواقع ، يلاحظ كذلك أن الأم التي عثرت عليها الفتاة عليها علامات الثراء والجاه ، وهذا أمر مرغوب فيه ، ولكن عليها في نفس الوقت علامات الخلاعة، مما يكون قد أدى الى سقوط خلقى أدى بدوره الى ولادة هذه الفتاة . وعنصر التقنع في هذا الحلم ليس كبيرا ، فلا تحتاج الرموز الى جهد يبذل لتفسيرها . ولكن من الرموز ما هو أبعد من هذه ، فالأسد والثعبان والملك والاله ، كل هذه رموز لمصدر القوة وهو الوالد . والاختباء في صندوق رمز للبحث عن الأمن ، أو — كما يقول « فرويد » — رمز للعودة الى الرحم ، وهو أكثر الأمكنة اتصافا بالأمن ، والمقصود بهذا كله أنه رمز للعودة الى الأم .

يتبين مما تقدم أن الأحلام لا تفسر تفسيراً نفسياً ناجحاً على أساس الخبرات الحديثة الوقوع أو على أساس الاختبارات الحسية المباشرة ، أو على أساس التنبؤ بما سيحدث ، وإنما تفسر على أساس الرغبات والنزعات المكبوتة التي تسعى الى التحقق .

ويرجع الفضل الى « فرويد » في ابانة الفرق بين المحتويات الظاهرة والمحتويات الكامنة ، وتوضيح فكرة الرمزية والتقنع ، وشرح عمل الرقيب لاحداث هذا التقنع ، وكذلك يرجع الفضل اليه في بيان الشبه بين الأحلام والأمراض

العقلية والنفسية ، وفي النظر الى الأحلام على أنها مفتاح العلاج النفسى التحليلي .

ولا بد في موضوع الأحلام أن نشير الى بعض ما يشغل الأذهان عنها ، فيحدث أن يحلم الشخص بأنه يشنق ، فيقوم منزعجا ويجد أن الغطاء ضاغط حول رقبته ، يجد صاحب الحلم هنا تفسيراً سطحياً مقبولاً ، ولكن المحللين النفسيين لا يكتفون بهذا التفسير ، وقد يعتبرون أن الشنق نوع من عقاب الذات بسبب خطاياها ، ولكنهم يذهبون الى تحديد تفاصيل الحلم ، وتحديد كل ما يرمز اليه كل من هذه التفاصيل حتى يصبح للحلم معنى نفسى فى ضوء دراسة حياة صاحبه .

كذلك يحدث أن يرى شخص فى الحلم أن شقيقا له قد مات ، وبعد أيام يموت هذا الشقيق ، فيظن صاحب الحلم أن الأحلام تنبىء بما سيحدث فى المستقبل ، ويبالغ الناس فيما ينسبونه من قيم تنبؤية للأحلام . ولكن الأمر لا يعدو أن يكون اما مجرد صدفة ، واما مبنيا على التوقع اللاشعورى . فالأخ الذى مات فى الحلم كان بالفعل فى بداية مرض مما أدى الى وجود نوع من التوقع . على أن توقع الموت أمر غير مرغوب فيه من وجهة نظر النفس الشعورية أو الأنا . ولكنه كان مرغوبا فيه بطريقة لاشعورية . وندرك هذا اذا علمنا أن صاحب الحلم هو الأخ الأكبر ، وأن الأخ المتوفى هو الأصغر ولكونه الأصغر كان يجد من العناية والتدليل ما يفوق ما يجده الأخ الأكبر ؛ ولهذا كانت هناك رغبة لاشعورية فى التخلص منه ، وبهذا اجتمعت الرغبة فى التخلص من الأخ الأصغر مع التوقع اللاشعورى فى احداث الحلم . وكان مما بينه « فرويد » أن الأحلام واضحة الاتصال بالحياة العقلية اللاشعورية ، وقد استخدمها بالفعل — كما بينا — فى عملية التحليل النفسى . ومن دلائل الاتصال الوثيق بين الأحلام والحياة اللاشعورية ، أن الانسان يميل عادة الى نسيان أحلامه . فيجد المرء نفسه يتذكر الحلم بمجرد استيقاظه من النوم ، وقد يسترجعه واضحا عند ذلك . ولكن اذا تقدم به النهار ثم حاول أن يسترجعه ، فانه كثيرا ما يجد أنه قد نسيه كله أو أغلبه . وينسى أغلب الناس أغلب أحلامهم بعد أيام قلائل من وقوعها . وقد يسأل الشخص

عما اذا كان يحلم فيقول انه يحلم أحيانا ولكنه ينسى كل أحلامه أو يقول انه لا يحلم ، وقد تكون حقيقة الأمور انه يحلم وينسى الأحلام ، وينسى كذلك أنه يحلم ، والى جانب الميل الى نسيان الأحلام هناك نزعة الى تحويرها⁽¹⁾ وتحوير الحلم ظاهرة لاشعورية ، ويمكنك أن تفهم هذه الظاهرة بأن تدون أحلامك بمجرد استيقاظك من النوم ، ثم تدون كل حلم مرة أخرى بعد أيام من حدوثه . فاذا وازنت بين ما سجلته في الحالتين ، تجد بعض الاختلاف . ويستغل المحللون النفسيون ظاهرة التحوير لمعرفة اتجاهات الكبت عند الانسان ، ومن أمثلة التحوير أن شابا رأى نفسه في الحلم يغازل فتاة ، ثم تحولت الفتاة في أثناء المغازلة الى أمه ، فأصبح يرى نفسه في الحلم يغازل أمه . وبعد أيام سجل الحلم على أنه رأى نفسه يغازل فتاة ولم يشر اطلاقا الى الأم . يتضح من هذا اتجاه التحوير بين سرد الحلم أول مرة وسرده في المرة التالية .

ولا تكون الأحلام عادة بهذا التحديد والوضوح ، وانما تظهر مختلطة بحيث تفسر الأجزاء المختلفة للحلم الواحد بتفسيرات مختلفة ، فميزة الحلم أن العقل لا يدخل في حسابه اذ ذاك المسافات الزمانية والمكانية . فقد يحلم الشخص أنه بمنزله وزوجته وأولاده وظروفه المصرية يعيشون في إنجلترا . وقد يعيش المرء وهو في سنه الحالية في ظروف طفولته . وكثيرا ما يحدث في الحلم ما سماه «فرويد» بالتكثيف . فالشخص الذي يغازل أمه رآها صغيرة السن جميلة الطلعة ، وبذلك جمع في حلم واحد بين رغبته في مغازلة فتاة شابة وحبه لأمه ، فجمع في شخص واحد بين أمه المسنة والشباب . وهناك مثال يبين ظاهرة التكثيف بصورة أوضح ، وهو الحلم الذي رآه طالب الطب الذي استيقظ من نومه في الصباح الباكر ، وكان عليه أن يذهب الى المستشفى ، ولكنه شعر بالحاجة الى النوم . فاستسلم لاغفاءة قصيرة . وفي أثناءها رأى أنه نائم على سرير في المستشفى ، وبذلك جمع في الحلم بين رغبتي ؛ احدهما: النوم ، والأخرى : ذهابه للمستشفى

(1) Elaboration

وهي تشبه أحلام النوم في كثير من الوجوه ، أهمها أنها مجال للتعبير عن النزعات التي لا يمكن تحقيقها في حياة الواقع . فالشخص الذي يسعى الى الطموح ويجد السبل أمامه غير ميسرة ، يشرذ ذهنه ويرى نفسه خطيباً مفوهاً أو مخترعاً ذائع الصيت ، ويرى اسمه بالخطوط العريضة في الصحف والمجلات أو يرى نفسه رجلاً غنياً عريض الجاه واسع الثراء . وتكثر أحلام اليقظة عند الأطفال والمراهقين ، فنجدها في الأطفال عادة قبل سن الثامنة كما نجدها في أوائل المراهقة . فالطفل يحلم بما يشعر أنه محروم منه . فالمحروم من اللعب يحلم به ، والمحروم من الزملاء يحلم بهم وهكذا . فكثير من الأطفال يتصورون أن الصنوبر إذا فتح فقد يصب أقراصاً من «الشيكولاتة» يتبع بعضها بعضاً دون انقطاع ، أو يتصور نفسه وقد أصبح رجل البيت يحكم ويأمر وينهى ويمنع ويمنع كما يفعل والده . وأحياناً يرى والده وقد اختفى ، فيخلو له جو المنزل أو يرى نفسه وقد مات فيبكي عليه الوالدان ويحزن عليه جميع الناس ، وبذلك يحدث بسببه حدث عظيم . ولا نهاية لأمثلة أحلام اليقظة عند الأطفال والمراهقين ، وقد سبق أن أشرنا إليها عند دراسة موضوع اللعب بمناسبة حديثنا عن اللعب الإيهامي والقصة . ولهذا كان اللعب والعمل الحر التطبيق خير المجالات لدراسة الحياة اللاشعورية عند الأطفال والمراهقين ، وكان في التعبير التطبيق بالرسم ، والكتابة الحرة ، وعمل المجسمات بالصلصال مجال طيب لاستيضاح كثير من الاتجاهات اللاشعورية . وكلما كانت الوسيلة تسمح بالتعبير على نطاق واسع ازدادت سهولة استكشافنا للنزعات اللاشعورية . فالورق الكبير الواسع المصقول خير من الورق الضيق المحدود ، وكذلك القلم السيل الناعم خير من القلم الخشن الجاف ؛ وبعبارة أخرى : يجب أن تقلل كل مقاومات التعبير أو موانعه . وفي هذا توجيه لتجارب جديدة في تدريس الفنون من رسم وأشغال وغناء وغيرها ، وكذلك في تدريس اللغات وما إليها . وقد أعطيت في مناسبة من المناسبات مجلة مصورة وورقا وقلما لأحد الأطفال ، وكان عليه أن ينتظرنى ، وطلبت إليه أن يتسلى بالمجلة والقلم والورق الى أن أعود اليه . وعندما عدت وجدت أنه قد نحى الورق جانبا ،

واستخدم القلم في تشويه جميع صور السيدات التي بالمجلة ولم يقرب صور الرجال . ولهذا دلالة في ضوء معرفتنا لحالة الولد ، فقد كانت أمه تفضل البنات على البنين ، فشعر ازاءها بنوع من الكراهية ، ولكن ما لبث أن كتبها حتى يظهر بالمظهر المألوف ، وهو حب الطفل لأمه . ولكن كثيرا ما كان يشرذ ذهنه فيرى نفسه في مواقف تعبر فيها هذه الكراهية عن نفسها ، فيراها مريضة أو ميتة . وما كاد يدخل الى نفسه ويجد الأوراق والصور ، حتى وجدت رغباته المكبوتة فرصة للتعبير الحسى الملموس . ويجد المربون في استجابات الأطفال لما يسمعونه من قصص ، وفي تكميل القصص الناقصة ، وفي حصص الأخبار الحرة وفي التعليق عليها مجالا طيبا للوقوف على كثير من النزعات المكبوتة .

آدلر

كان «آدلر» من تلاميذ «فرويد» ولكنه اختلف مع أستاذه، وكون لنفسه رأيا مستقلا ، وأصبحت له مدرسة في علم النفس لها أتباعها ، وتسمى سيكلوجية «آدلر» بسيكولوجية الفرد ، ولها تسمية أدق من هذه وهى « سيكلوجية الفرد الاجتماعية» ويهتم «آدلر» بالطريقة التى يتبعها الفرد فى تكيف نفسه مع المجتمع وتنطوى سيكولوجية «آدلر» تحت فلسفة أوسع ، وهى أن العالم فى تطور مستمر ، فهو يرتقى من أدنى الى أعلى . ويقال : ان ظاهرة الارتقاء وجدت منذ وجد الكون ، فهى ليست قاصرة على ظواهر الحياة ، وانما يمكن رؤيتها فى الظواهر غير الحية، فاذا انتقلنا الى الانسان وجدناه يسير على نفس القاعدة، فهو ينزع الى الارتقاء ، والاتقال من حالة الضعف الى حالة القوة ، ومن حالة الخنوع الى حالة السيطرة ، ومن حالة الاستسلام الى حالة التسلط ، ومن حالة النقص الى حالة الاكتمال⁽¹⁾ ومن حالة الاستسلام الى حالة التسلط الأساسية لدى الانسان هى غريزة السيطرة ، وغايتها التخلص من الشعور بالنقص ، ويهتم «آدلر» كما قلنا — بالأسلوب الذى يتخذه الشخص للسيطرة

(1) ويشترك مع «آدلر» فى هذه الفكرة « نيتشه» حيث نادى بالرغبة فى القوة "Will to Power" ويشترك معه كذلك «شوبنهاور» و«هارتمان وبرجسون»

والتغلب . ويرى أن لكل فرد أسلوبا يكاد يكون ثابتا في شكله العام ، ويسميه أسلوب الحياة أو نمط الحياة^(١) . والى جانب هذا نجد يعتبر النفس الانسانية وحدة ، ولا يعطى أهمية خاصة لفكرة اللاشعور . وقد كتب مجلدات بأكملها دون أن يشير الى اللاشعور . وينكر «آدلر» وجود عملية الكبت ، وينكر كذلك أدوار النمو الجنسية التي بسطها « فرويد » ، ولا يرى للغريزة الجنسية تلك الأهمية الكبيرة التي يراها لها « فرويد » . كما أنه يرى أن أهم ما في الحياة العقلية الشعور بالنقص والعمل الدائم على التخلص منه والتعويض عنه . والقيام بهذا يكون بأسلوب معين أو نمط خاص تتحدد شخصية الفرد بناء عليه^(٢) .

دواعى الشعور بالنقص :

أما النواحي المختلفة التي تجعل المرء يحس بنقصه فهي :

أولا : جسمية كالقصر أو الطول أو النحافة أو الضخامة أو غير ذلك . ويلاحظ أن الطفل بحكم طفولته وضعفه وقصره يشعر بنقص عضوى . ويقابل هذا كله بالنزوع الى الاكتمال ، ويقوم بهذا فى أسلوب معين يبدأ به منذ الصغر . ويرى « آدلر » أن النقص العضوى فى الصغر أساس هام للنقص السيكولوجى .

ثانيا : عقلية كالتأخر الدراسى وضعف القدرة على التصرف ، وسهولة الانخداع للغير .

ثالثا : اجتماعية مثل كون الفرد غير ظاهر بين الآخرين ، أو كونه غير محبوب ، أو لا ينال احترام من حوله ، أو قليل الفائدة لهم أو غير ذلك .

ويلاحظ هنا ما نلاحظه عادة فى الظواهر النفسية من التداخل بين هذه النواحي الثلاث . فنواحي النقص الجسمى لا تخلو من نواحي عقلية ونتائج اجتماعية . وكذلك نواحي النقص العقلى لها نتائجها الاجتماعية . وواضح أن نواحي النقص الاجتماعية يظهر فيها العنصر العقلى بدرجة واضحة .

(١) Style of life.

(٢) راجع كتاب علم النفس الفردى للدكتور « أسحق رمزى » فففيه عرض مفصل وتقد دقيق لسيكولوجية « آدلر » مع بيان بعض التطبيقات .

وقد يكون شعور المرء بنقصه في هذه النواحي غير مطابق للواقع . فقد ترى الفتاة نفسها قبيحة ، والواقع أنها متوسطة الجمال . والسر في هذا أنها تضع لنفسها مستوى عاليا جدا كانت تحب أن تصل اليه ، فتشعر ازاء هذا المستوى بالعجز والنقص . وكثير من طلاب العلم يقدرّون أنفسهم تقديرا يقع دون الحقيقة ، والسر في هذا أيضا أنهم كانوا ينتظرون لأنفسهم مستوى عاليا جدا ، فيشعرون دائما بالتصور دون هذا المستوى . ويحجم بعض الناس عن القيام بالأعمال التي تقع في مقدورهم خوفا من عدم وصولهم الى المستوى التخيلي الذي نصبوه لأنفسهم . ويقال : ان الاصرار على الكمال يتضمن الشعور بالنقص . والذين ينطبق عليهم هذا يفضلون ألا يعملوا على أن يعملوا ويفشلوا في نظر أنفسهم وتمشي مع هذه الظاهرة ظاهرة أخرى ، وهي الحساسية الشديدة للنقد عند بعض الناس ، وهي تدل دائما على شعور بالنقص .

مواجهة الشعور بالنقص :

ويرى « أدلر » أن الفرد يتبع احدى طرق ثلاثة لمواجهة الشعور بالنقص وهذه هي :

أولا : أن يحاول التعويض عن نواحي الضعف فينجح في تقويتها أو في تقوية نواحي أخرى . فبالرغم مما كان عليه «روزفلت» من عجز جسمي أدى الى استعماله رجلا صناعية ، فانه قد عوض عن هذا تعويضا ناجحا الى أقصى حد مستطاع ، فأصبح من الهواة المهرة لركوب الخيل ، ومن لاعبي التنس ثم صار رئيسا لجمهورية الولايات المتحدة أكثر من مرة . وكذلك «بيتهوفن» ، فبالرغم مما أصابه من صمم جزئي فانه تمكن من تأليف أروع القطع الموسيقية الخالدة . كذلك «ديموشينس» ، فقد كان مصابا في صغره بالتهتهة ، ولكنه كان يضع الحصى تحت لسانه فلما منه أن هذا يعاونه على حل عقدة لسانه عند التمرن على الكلام . وقد تابرعلى هذا حتى تغلب على نفسه وأصبح من خطباء التاريخ المعدودين . ونلاحظ أنه يمكننا دائما أن نكشف في الأطفال بعض النواحي الطيبة التي يمكن تقويتها . فيشعر معها الطفل باحترامه لنفسه .

ثانيا : أن يفشل في القيام بتعويض ناجح مشبع للنفس ، فيلجأ الى عملية تعويض تخرجه عن الحدود المقبولة في المجتمع ، ويسمى هذا النوع بالتعويض الزائد « Over Compensation » ونرى أمثلة من هذا في الكبرياء ، والقحة ، والخروج على النظام ، وعبث الأطفال وغير ذلك .

ثالثا : أن يتكون في حالة الشلل مرض عضبي يخلص المرء من عملية الكفاح ويعفيه من لوم نفسه أو لوم الناس له . فالرجل الذي يرى نفسه يتأخر عن زملائه في الحياة ، ثم يصيبه صداع يجد نفسه غير قادر على الكفاح ، ويجد لنفسه عذرا مقبولا أمام نفسه وأمام الناس ، ويجد الناس له كذلك عذرا في هذا التأخر ، بل قد يصبح موضع اشفاقهم واتباههم . يكون هذا الصداع عادة مبنيا على مواقف نفسية أكثر مما يكون راجعا الى أسباب عضوية . كذلك الشلل الهستيرى ، كشلل الكتاب مثلا « writers' cramp » يعفى صاحبه من القيام بعمله ، ذلك لأن العمل يضعه في مواقف يشعر ازاءها بالقصور . وينجح الشلل في اغفاء الشخص من لوم نفسه ولوم الناس له ، بل يتوهم الشخص معه أنه لولا وجود هذا الشلل لأتى بالعجب العجاب .

مبادئ التكيف :

ويرى « آدلر » أن أمام كل فرد ثلاثة ميادين يلزمه أن يتكيف لها تكيفا ناجحا وهذه هي : (١) المجتمع . (٢) المهنة أو العمل . (٣) الحب

والمجتمع الأول للطفل هو الأسرة ، ولذا كان لمركز الطفل في الأسرة أهمية خاصة في نظر « آدلر » . فهناك الطفل الذي يتميز بكونه الأول أو الأخير أو كونه الوحيد مع عدد من البنات ، أو كونه الأول بعد عدد من الوفيات الى غير ذلك من التشكيلات التي تجعل للطفل مركزا متميزا ، ويجد بناء عليه معاملة متميزة . ويترتب على هذه المعاملة عادة أن يتخذ أسلوبا أو نمطا لمواجهتها . فالطفل الذي يعامل بالتدليل يعامل كما لو كان ضعيفا محتاجا الى الرعاية والتدليل ، والطفل الذي يعامل بالقسوة يشعر مع هذه المعاملة بأنه ضعيف . كذلك الطفل الذي يهمل أو يستبعد ، أو يكون موضوعا

للاستهواء والسخرية ، فانه يشعر بالنقص . والأسلوب الذى يكونه الطفل تبعاً لمركزه ، وما يعامل به وما يقابل من مشكلات فى الرضاعة واللعب وما الى ذلك يصبح أسلوباً يستعمله فى كل المواقف . فالطفل الأكبر الذى نشأ على الأخذ دون العطاء فى السنتين الأوليين يكبر على الأناية التى تظهر منه فى اللعب ، وفى علاقته بزملاء الدراسة ، وفى علاقته الزوجية عندما يكبر وغير ذلك .

وللتربية الاجتماعية فى البيت وفى المدرسة أهمية كبيرة فيجب أن يعود الطفل التعامل مع الآخرين والظهور بينهم بحيث يكون مقبولاً محبوباً ، وأن يعود كذلك أن يكون مفيداً خادوماً للجماعة التى ينتمى إليها ، وأن يعود ضبط النفس ، وعدالة التقدير ، واحتمال الأخطاء ، وتحمل الهزيمة بروح طيبة ، وعدم اتخاذ النصر وسيلة للتشفى . هذه كلها صفات يمكن انماؤها فى جو المدرسة ، وفيها اعداد طيب للمجتمع الأكبر خارج المدرسة .

أما ميدان العمل أو المهنة فبذرتة الأولى فى المدرسة . ولكى يساعد الطفل على اتخاذ الاتجاه الصحيح ، فاننا نعطيه العمل الذى يتفق مع ميوله وقدراته ، والذى لا يكون دون مستواه ، فيقصر العمل عن مستوى جهده ، ولا يعلو كثيراً فوق مستواه ، فيقصر جهده دون النجاح فيه . فالشعور بالنجاح فى العمل أكبر حافز للمثابرة والصبر والاستمرار فيه . فاذا خرج الشاب للحياة ، وبدأ عمله لكسب العيش ، أصبح لهذا العمل معنى هام جداً ، إذ أن الشخص يشتق اعتزازه بنفسه من نوع العمل الذى يقوم به . ثم ان علاقة الشخص بمن يعملون معه — من رؤساء ومرءوسين وزملاء — تحدد كثيراً مقدار حب المرء لعمله . ويجب فوق هذا كله أن يكون العمل مناسباً لمقدرات الشخص وميوله ، وأن يكون مناسباً كذلك من حيث ما يصرف فيه من وقت ، وما يتخلله من راحة ، وما يدره من ربح ، وما يشعر به الشخص من تحقيق للذات ، ومن اتفاق مع الكرامة .

ويلاحظ أن كثيراً من الناس يقومون بأعمالهم مكرهين ، فهم مضطرون الى التزامها لكسب العيش ، ومع ذلك فهم يبغضونها لسبب أو لآخر من الأسباب التى تتعلق بما سبق أن بيناه .

أما ميدان الحب فإن « أدلر » يعطيه أهمية خاصة بالرغم من عدم اعترافه بالأهمية التي أعطاها « فرويد » للغريزة الجنسية . ويقصد « أدلر » أنه يجب أن يكون هناك علاقات حب صحيحة ناجحة بين المرء وزوجه . وتعتبر التربية الجنسية الصحيحة بأساليبها المختلفة من أهم عوامل التكيف في هذا الميدان الأخير . فالشخص الذي يستمتع بحياة زوجية سعيدة ، وبعمل ناجح ، وبعلاقات اجتماعية موفقة ، يكون قد بلغ ما نشده للمرء من تكيف صحيح . ونلاحظ أن انعدام تكيف المرء في أحد هذه الميادين قد يدفع به الى تعويض ناجح أو غير ناجح في نفس الميدان ، أو في أحد الميادين الآخرين .

فرويد و أدلر :

وقد رأينا أن « أدلر » يتفق مع « فرويد » في كثير من النواحي . فهو يتفق معه في أهمية الدوافع الغريزية ، وإن كان يختلف معه في تقدير أهمية هذه الدوافع بعضها بالنسبة الى البعض الآخر فبينما يرى « فرويد » الأهمية الأولى للغريزة الجنسية ، يرى « أدلر » الأهمية الأولى للسيطرة ، ويعتبر أن من أهم مظاهر السيطرة ما سماه النزوع للرجولة «Masculine Protest» ، وهو ما نفسر به محاولة الاناث التشبه بالذكور في الملبس والتدخين والمطالبة بالمساواة بالرجل في الحقوق السياسية . وهو كذلك ما نفسر به ما يقوم به الغلمان من محاولة التشبه بالرجال .

ويفصل « فرويد » بين الذات والهي والذات العليا . وأما « أدلر » فإنه ينظر الى هذه كلها على أنها وحدة متماسكة تتصل بعالم الواقع ، وتتغلب على مشكلاتها معه بأسلوب ثابت في شكله العام .

ويختلف « أدلر » مع « فرويد » في نظره الى الأحلام . فبينما يرى « فرويد » أن الحلم ميدان لتحقيق الرغبات ، يرى « أدلر » أنه تعبير عن الأسلوب الذي ينزع الشخص لاتخاذ له ليحل به مشكلاته . ويرى الناقدون أن « أدلر » ينظر بهذا الى المستقبل ، وأما « فرويد » فإنه يقتصر على الماضي والحاضر .

ويختلفان كذلك في طريقة معالجة الحالات العصبية ، فبينما يتجه « فرويد » الى الكشف عن النزعات المكبوتة وتحويلها من الحالة اللاشعورية للحالة

الشعورية كما بينا في الصفحات السابقة ، يرى «آدلر» أن يحدد هدف الشخص في الحياة ، وأن يرسم أسلوبه الذي يخطه لبلوغ هذا الهدف . ولكي يرسم هذا الأسلوب ، يعود الى الطقولة ليرسم صورة لمركز صاحب الحالة من أسرته في هذه المرحلة . ويرى من هذه الصورة مجموع القوى المؤثرة في الشخص ، وبدراسة نموه يتتبع ما يطرأ على هذه القوى من تغير ، وما يترتب على هذه التغيرات من صعوبة في التكيف ، وحاجة الى اعادة الاتزان .

يونج

ويرجع الى «يونج» الفضل في انه أول من تحدث في اسهاب عن الطاقة الحيوية الغريزية المعروفة باسم الليبدو « Libido » وان كانت الطاقة الحيوية في نظر « فرويد » أساسها الغريزة الجنسية ، فانها في نظر « يونج » أوسع من هذا بكثير . والى جانب هذا الاختلاف الواقع بين « فرويد » و « يونج » فان هناك اختلافا آخر في ادراك كل منهما للاشعور . فبينما يرى « فرويد » أن الحالات اللاشعورية تشمل جميع النزعات والذكريات المكبوتة يرى « يونج » أن اللاشعور يحتوى على نزعات وخبرات موروثه من الأجيال السابقة . فكأن « يونج » يؤمن بتوارث الصفات المكتسبة . وهذه النزعات اللاشعورية المتوارثة من الأجيال السابقة يسميها « يونج » باللاشعور الجمعي « Collective Unconscious » وهي لا تقتصر على النزعات الغريزية وأشكال السلوك البدائية ، وانما تشمل بعض الآراء والأفكار التي تفسر الخبرات الأولى . لهذا يرى « يونج » أن اللاشعور الجمعي يشمل نواحي حسنة ، وأخرى قبيحة ، ويحتوى نواحي طيبة ، وأخرى شريرة ، ويضم اليه نواحي خلقية عليا ، وأخرى لا خلقية تتصف بالضعف والانحطاط .

ومما يستدل به على وجود اللاشعور الجمعي التشابه الموجود في بعض الأحلام عند الناس على اختلاف أجناسهم في مختلف الأزمنة والأمكنة . فالسقوط في هوة سحيقة لا قرار لها حلم مألوف لكل انسان ، وغيره من الأحلام المألوفة كثيرا . ويرى كذلك أن بعض النواحي اللاشعورية الجمعية

تصبح شعورية ، وبعض هذه يتولاها نوع من الكبت وتسمى بالاشعور الشخصى « Personal Unconscious » وقد تأثرت آراء « يونج » فى الاشعور بفلسفة أقرب الى أن تكون فلسفة دينية . فنجدته يتحدث عن الصراع بين منابع الخير و منابع الشر الموجودة أصلا فى الانسان ، وهذا يخالف فكرة الصراع عند « فرويد » ، الذى يرى أن الصراع يقوم بين الهى والذات أو الذات العليا . ويعلم أن كلا من الذات والذات العليا ينتج عن الخبرة بالمقاييس والقيم الموجودة فعلا فى عالم الواقع .

ولا يمكننا أن نطيل فى بيان النظرية السيكولوجية التى وضعها « يونج » ، وذلك لصعوبة الافادة منها فى ميادين التربية والتعليم . ونكتفى الى جانب ما ذكرناه بذكر أربع نواح أخرى .

أولاها ما يؤكده « يونج » من تناقض بين الشعور والاشعور ، فإذا اتصف الشعور بالشجاعة ، اتصف الاشعور بالجبن ؛ وإذا اتصف الشعور بالأمانة ، اتصف الاشعور بالخيانة وهكذا .

والثانية أن الأسلوب العام عند فشل الانسان فى مواجهة مشكلاته هو النكوص . فإذا فشل المرء فى مواجهة التكيف للحب بطريقة ناجحة ، فإنه قد يمتنع عن الزواج ويفضل المعيشة مع أمه أو أخته أو امرأة عجوز . وبهذا يسلك سبيلا ينتمى الى دور الطفولة ، أى أنه يرتد بسلوكه الى أسلوب طفلى . وأساليب التكيف التى تنتمى لدور الطفولة قد تكون حقيقة كاللبكاء ، ومص الأصابع ، وبعض أنواع الحركات العصبية ؛ وقد تكون وهمية كما يحدث فى أحلام النوم وأحلام اليقظة . فإذا فشل شخص ما فى الحصول على الثروة التى تشتاق اليها نفسه ، فإنه قد يحقق ما يريد بالسرقه أو الخطف ، أو قد يتصور أنه يحتقه بالتوهم والاغراق فى الأحلام . وكلاهما فى نظر « يونج » من أساليب أدوار الطفولة أو الأدوار البدائية .

أما الناحية الثالثة فهى أن « يونج » ابتدع طريقة التحليل النفسى باستعمال الكلمات التى يسمعا صاحب الحالة ثم يرد بسرعة بأول كلمة تخطر له . فان تأخر فى الرد أو امتنع عنه فان هذا يكون دليلا على أنه يقاوم اعطاء الرد .

ويتخذ هذا دلالة على أن هذه الكلمة تستثير فكرة تنتمي للاشعور الذي يراد إخفاؤه . كذلك اذا جاء الرد عديم المعنى بأن قال صاحب الحالة ردا على كلمة « طربوش » مثلا كلمة لا معنى لها مثل « همشوش » ، فان هذا يشبه الامتناع عن الرد . وقد وضع « يونج » ثبنا بمائة كلمة رأى أنها تمثل أغلب النواحي التي يمكن أن نلصقها في الاشعور ، مثل ماء ونار ودم الى غير ذلك .

سيكولوجية الأنماط :

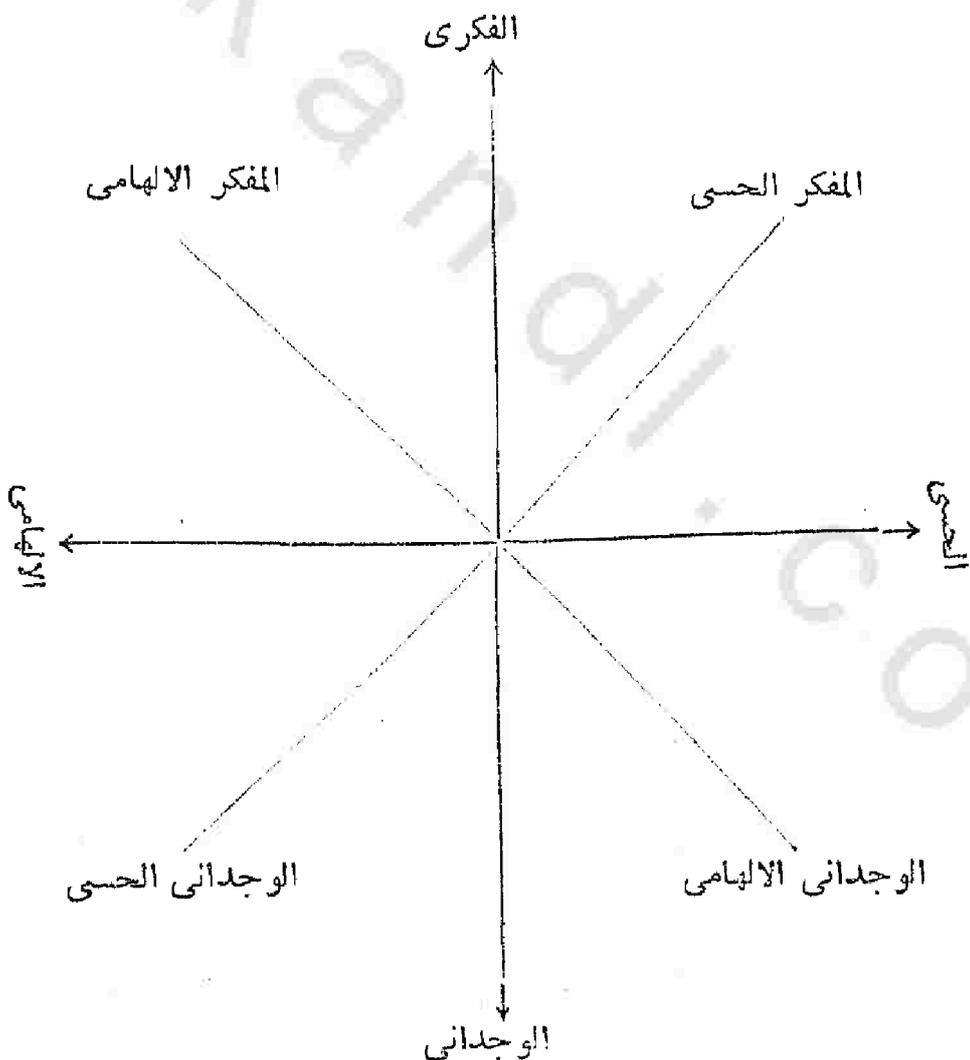
أما الناحية الرابعة فهي تقسيمه للناس الى طوائف . فقد بدأ في أوائل هذا القرن يضع تقسيما ثنائيا . فصنف الناس الى انبساطيين « Extraverts » وانطوائيين « Introverts » فالانبساطيون تجدهم أكثر اتصالا بحياة الواقع ، أما الانطوائيون فانهم أميل الى التفكير والتأمل . وتجد الانبساطيين يتصفون بسهولة التعبير على عكس الانطوائيين فتعوزهم هذه الناحية . ويميل الانبساطيون الى الاختلاط والى الدعابة . فبينما تجد الانطوائيين يضطربون في أعمالهم وأحاديثهم أمام الناس تجد الانبساطيين يحسنون العمل والتحدث اذا وجد المتفرجون والمستمعون . ويختلف أحد النوعين عن الآخر في أن الانطوائيين أميل الى الحذر والتأمل والحساسية ، على خلاف الانبساطيين فانهم أميل الى الجرأة والتأثر بالواقع ومجاراته . ويرى « يونج » أن الانبساطى في حياته الشعورية يتصف بصفات الانطوائيين في حياته اللاشعورية وأن الانطوائى في حياته الشعورية يتصف بصفات الانبساطيين في حياته اللاشعورية . فالشخص الحذر في حياته الشعورية تتصف نزعاته اللاشعورية بكثير من الاندفاع والجرأة .

ويمكننا أن نقول : ان الانبساطى شخص عملى واقعى سطحى ، وان الانطوائى شخص يتصف بالعمق والحساسية الانفعالية ، ويميل الى التفكير والتخيل .

وقد ذهب « يونج » في تقسيمه الى درجات أكثر دقة من هذا التقسيم الثنائى ؛ فرأى أن هناك وظائف أربع ، وهى التفكير والوجدان والالهام والاحساس . فكل فرد تقوم حياته العقلية بهذه الوظائف الأربع . غير أننا نجد احدى هذه الوظائف أكثر بروزا لدى الشخص من الوظائف الأخرى . وبهذا وصل يونج الى تصنيف على أساس هذه الوظائف الأربع ؛ فهناك صنف

من الناس تغلب عليه الناحية الفكرية، وصنف آخر تغلب عليه الناحية الوجدانية،
 وصنف ثالث تغلب عليه الناحية الالهامية ، والصنف الرابع تغلب عليه
 الناحية الحسية . والذي تغلب عليه الناحية الفكرية تقل عنده الناحية
 الوجدانية . والذي يعتمد كثيرا على الالهام لا يعتمد على الحس الا قليلا ؛
 فالفكر يقابله الوجدان ، والحس يقابله الالهام .

وتقع بين هذه التقسيمات تقسيمات وسطى كما هو واضح من الشكل ؛
 فهناك صنف يتصف بالتفكير الحسى أو الاختبارى «Empirical Thiking»
 وقسم يتصف بالتفكير التأملى ، وهو واقع بين الالهام والتفكير ؛ وصنف
 آخر يمكننا أن نسميه بالوجدانى الالهامى . وهو الذى يشعر بانقباض
 معين ؛ فمثلا يستلهم منه أن حادثا سيئا قد وقع ثم تثبت له صحة هذا ،



أو يشعر بالاستبشار ويستلهم منه خبرا طيبا ، ثم تثبت له صحته كذلك .
والصنف الرابع يسمى بالوجداني الحسى وهو الذى يعتمد فى حياته
الوجدانية على المحسوسات من مآكل ومشرب وملبس وروائح عطرية
وما الى ذلك . وتتلون حياته بهذا اللون الوجداني الحسى .

ويدخل «يونج» هذه التقسيمات تحت التقسيم الثنائى الأول ، وبهذا
ينقسم الانبساطيون الى ثمانية أقسام ، أربعة منها هى أقسام « الفكرى
والوجداني والالهامى والحسى » ، والأربعة الأخرى تقع وسطا بين هذه . كذلك
الانطوائيون ينقسمون ثمانية أقسام بنفس الطريقة فهناك المفكرون
الانطوائيون والمفكرون الانبساطيون ، وهناك الوجدانيون الانبساطيون
والوجدانيون الانطوائيون ، وكذلك الحسيون الانبساطيون والحسيون
الانطوائيون ، وكذلك الالهاميون الانبساطيون والالهاميون الانطوائيون .

النوع الانطوائى المفكر :

ونرى من هؤلاء أمثلة كثيرة ، وهم يصرفون وقتهم فى المعنويات دون
المحسوسات . وتجدهم ميالين الى الاعتكاف فى برجهم العاجى لاستنباط
فكرة من أخرى ، ولقضاء الوقت فى التأمل والتفكير، وتجدهم عادة غير مباليين
بالناس وأعمالهم وأقوالهم وتقاليدهم ، ويرون فى الأشياء معانيها ويعرقون
فى التفكير فى هذه المعانى . وبالجملة فاننا نجدهم قليلي الاهتمام بالواقع ،
وقليلي الإدراك للعلاقات والمشاعر الانسانية ، ونجد حياتهم الانفعالية شديدة
الفتور وتصل فى كثير من الأحيان الى الضمود . ويميل الواحد منهم الى
التمسك بفكرته ، والى اقتحام هذه الفكرة على غيره ممن يتعامل معهم .
وتجد العلماء الذين من هذا النوع يصلون أولا الى نظرياتهم ، ثم يرون
تطبيقاتها فى الحياة الواقعية . وينتمى الى هذا النوع كثير من العلماء الرياضيين
الذين يعكفون على نظرياتهم ، ويعيشون فى عزلة عن الناس يفكرون فيها .
وينتمى اليهم كذلك كثير من الفلاسفة الذين يتأملون المسائل العقلية
والكونية .

النوع الانبساطى المفكر :

ويميل هذا النوع الى أن يكون عمليا واقميا . فهو يعتمد على الحقائق والاحصائيات والتجارب ، ويميل الى أن يستنتج نتائج من هذه ثم يفيد من هذه النتائج فى الحياة العملية الواقعية . وينتمى اليهم علماء الطبيعة والكيمياء والأحياء ، وكذلك علماء العلوم الاجتماعية والسياسية ، فهؤلاء جميعا يعتمدون على الحقائق وعلى التجارب والمشاهدات والاحصائيات للوصول الى نظرياتهم . ومن أوضح الأمثلة لهذا النوع «تشارلس دارون» ، الذى لم يصل الى نظريته الا بعد أن درس ظواهر الحياة بالمشاهدة فى مختلف طبقات الأرض بجمع الحفريات وأنواع الحيوان المختلفة ، ثم تصنيفها ثم الوصول الى نظرية التطور بعد هذا كله . كذلك « مندل » كان مفكرا انبساطيا بنى نظريته فى الوراثة على استقصاء الحقائق وجمع المشاهدات .

النوع الانطوائى الوجدانى :

ويختلف هذا النوع عن النوع الانطوائى المفكر فى كون الأول تغلب على حياته العقلية الناحية الوجدانية ، أما الثانى فتغلب على حياته العقلية الناحية الفكرية . وتجد النوع الانطوائى الوجدانى منطويا على حالات وجدانية عنيفة . فتجدهم يحبون بقوة ، ويكرهون بعنف ، ويحزنون بشدة . وتجدهم مع هذا كله غير قادرين على التعبير عن هذه النواحي الوجدانية ، ذلك لأنهم لا يتصلون بالناس اتصالا يمكنهم من أداء هذا التعبير . وتجدهم يميلون للعزلة ، وفيها يحيون حياتهم الاتفالية بمختلف صورها . والسيدات أقرب عادة الى هذا النوع من الرجال .

النوع الانبساطى الوجدانى :

يميل أفراد هذا النوع الى مشاركة الناس أفرانهم وأحزانهم ، فهم اجتماعيون يحترمون التقاليد ويرعونها ، ويشاركون أصدقاءهم فى مسيرتها . وبذلك يحققون نزعاتهم الاجتماعية ، ويقومون بتوسيع دوائريهم الاجتماعية . وهم يتجهون الى التعبير الملموس عن حياتهم الاتفالية، فتجدهم يميلون الى مختلف الفنون من قص وتصوير وموسيقى وتمثيل وما الى ذلك .

وبانطلاقهم في التعبير الانفعالي يبدو كأنهم يفرغون شحناتهم فلا يتبقى منها شيء لحياتهم الخاصة. معنى هذا أنك تجدهم أقرب الى الفوران الانفعالي في الظاهر وأقرب الى الخمود الانفعالي في الداخل .

النوع الانطوائى الحسى :

يقوم أفراد هذا النوع بتأمل المحسوسات والاستمتاع بها ، فهم يحبون الاستماع للموسيقى ، ورؤية مناظر الطبيعة ومباهج الجمال في صوره المختلفة ولكنهم يرون في كل هذا انعكاسا لحالاتهم النفسية الوجدانية . فيرون في تمايل الأغصان آلامهم ، ويرون في قطرات الندى دموعهم وأحزانهم ، ويشهدون في خريف المياه وانفجار البراكين فوران انفعالاتهم . واذا قمنا بتحليل الشعر الوصفى ، نجد أن سر النجاح في نظمه يقوم على النجاح في اسقاط الصفات النفسية الوجدانية على نواحي الطبيعة المختلفة . وأفراد هذا النوع يقضون الساعات الطويلة يستمعون للموسيقى ، ويشهدون مناظر الطبيعة ، ويقومون بمناجاتها وبشها أشجانهم .

النوع الانبساطى الحسى :

وهو الذى تتوقف حياته النفسية على المؤثرات الحسية . فكلما ازدادت هذه المؤثرات في عددها وفي تنوعها ، استمرت حيويته . وهذا النوع سرعان ما يتسرب اليه الملل اذا قلت المؤثرات الحسية المحيطة به . فلا يمكنه أن يصبر على طعام واحد ، ولا أن يعيش في غرفة دون أن يغير من نظامها وأثاثها تغييرا يكاد يكون مستمرا . وهكذا تجد شأنه في شرابه وملبسه وأوجه المتعة المختلفة . ويمكننا أن نشبهه بالنحلة السريعة التنقل من زهرة الى زهرة . وتجده سطحيا في حياته الفكرية والانتعالية ، فلا تجده عميقا في صداقته أو حبه أو كراهيته ، ويبدو في كثير من تصرفاته كالطفل الصغير السريع الملل ، المتشوق الى التنوع ، القليل التعمق . الكثير التنقل من شخص الى آخر ، ومن لعبة الى أخرى ، ومن مكان الى مكان .

النوع الانطوائى الانهامى :

ولا يهتم هذا النوع بالمؤثرات الحسية الخارجية . وتجد هذا النوع مع سابقه على طرفى تقيض . وهو يصل الى أحكامه في شيء من السرعة

والعنف ، بدون أن يعتمد كثيرا على الأدلة الحسية الواقعية . ولهذا تجده
يكون رأيا من خبرة ضئيلة عن شخص من الأشخاص ، ويندفع في حب عنيف
أو كراهية عنيفة على أساس هذه الخبرة الضئيلة . وتجدهم ينقلبون عادة
من حب شديد الى كراهية شديدة أو العكس .

النوع الانبساطى الالهامى :

ويختلف هذا النوع عن النوع السابق فى الناحية التعبيرية . فالانبساطى
الالهامى يصل فى سرعة الى فكرة ، ويقوم فى الحال بالتنفيذ ، وبهذا يبدو
فى تصرفه شىء غير قليل من المغامرة . ويقال ان : كبار المقامرين ينتمون الى
هذا النوع ، فهم يعتقدون اعتقادا جازما لا مرد لهم عنه بأنهم سيربحون ،
وفى الحال يلقون بمالهم فى جرأة وغير تردد . وروح المقامرة تبدو أحيانا
فى مختلف نواحي الحياة كالدخول فى صفقات تجارية ، أو القيام بمخاطرات
استكشافية ، أو الاقدام على حروب ، كل هذا مع ايمان قوى بالنتيجة .
وربما كان هناك الى جانب هذا الايمان استعداد مادي ضئيل لا يكفى وحده
لاحراز النجاح .

ولعل فى شرح هذه الأنواع ما يكفى لأخذ فكرة واضحة عن التقسيم
الذى وضعه « يونج » . ويساعدنا هذا التقسيم على تصنيف الأشخاص
الذين نتعامل معهم تصنيفا يجعل هذا التعامل موجهها مضبوطا الى حد كبير .
ولكننا نلفت النظر الى أننا قلما نجد هذه التصنيفات واضحة محددة بهذه
الصورة فى الحياة الواقعية . فقلما نجد شخصا يمكننا أن نقول عنه : انه
انبساطى مفكر فحسب ، أو انطوائى الهامى فحسب . ولكننا نجد عادة أن
الشخص تغلب عليه صفات نوع من هذه الأنواع ، بحيث يمكن وضعه على
وجه التقريب فى مجموعة دون الأخرى .

وقد كان لـ « يونج » الفضل فى اثاره البحوث حول موضوع تصنيف
الشخصيات . وقد ظهرت تصنيفات أخرى كثيرة ، ومع ذلك فان تصنيف
« يونج » ما زال أكثر التصنيفات شيوعا واستعمالا .

مراجع للقراءة

- أسس الصحة النفسية :
أحلام اليقظة :
علم النفس الفردي :
مشكلة السلوك السيكوباتي :
ما فوق مبدأ اللذة :
التحليل النفسي :
عيادات العلاج النفسي :
- للدكتور القوصي .
تأليف جرّين ، وترجمة ابراهيم حافظ
للدكتور اسحق رمزي .
للدكتور صبري جرجس .
ترجمة الدكتور اسحق رمزي .
ترجمة الدكتور اسحق رمزي .
للدكتور محمد خليفة بركات .

الفصل السابع عشر

تطبيقات علاجية وتربوية

العلاج النفسى

أولا - الطريقة الاستهوائية :

درج كثير من الناس على أنه اذا سمع الواحد منهم شخصا آخر يشكو من ألم ليس له سبب جسمانى واضح ، قال له : ان هذا الألم ليس له وجود حقيقى وانما هو مجرد وهم وخيال ، وشجعه على التغلب على هذا الألم بأن يحاول أن يجعله يعتقد فى نفسه أنه صحيح البنية ، وأنه لا ألم عنده ، وبهذا يحاول علاجه بالتشجيع أو الايهام . ويذهب أحيانا بعض الأطباء الى أبعد من هذا ، فقد لا يجد فى المريض الذى يفحصه أية علة جسمانية تبرر وجود آلامه ، فيعطيه مزيجا من نوع ما هو فى نظر الطبيب لا يضر ولا ينفع ، ولكن فكرة الدواء كوسيلة للعلاج ، وكون الدواء موصوفا لحالة خاصة من طبيب له صيته ، كل هذا قد يجعل لهذا الدواء الايهامى نتيجة ايجابية فى الشفاء .

هذا النوع من العلاج يسمى بالعلاج الاستهوائى ، ويدخل تحته نوع آخر وهو التنويم المغناطيسى ، الذى لا يخرج عن كونه حالة متطرفة من حالات الاستهواء . وفى حالة التنويم المغناطيسى يصبح المريض تحت سيطرة الطبيب ، فيجعله الطبيب يتقبل أى فكرة يوحى اليه بها . فيوحى اليه بأنه صحيح الجسم قوى البنيان ، وأن ليس به مرض ما ، أو أن الصداع لن يأتيه بعد ذلك . وبعد ذلك يوقظ المريض من النوم المغناطيسى ، وبعد مرة أو مرات قلائل يشفى المريض . ولكن الشفاء بهذه الطريقة يكون قصير

الأمد ، فالعلاج الاستهوائي يتناول العرض دون أن يلمس الأصل . ولكي نفهم المقصود بهذا نذكر تشبيها يقرب الينا الفكرة ، فتناول « الاسبيرين » يعالج الصداع ، ولكنه لا يعالج السبب الأصيل الذي أدى الى الصداع . فقد يكون السبب راجعا الى بؤرة تسمم (Septic Focus) في اللثة أو في الجيوب الأنفية ، أو ما الى ذلك ، فاذا زال الصداع بفعل « الاسبيرين » فانه يزول بصفة مؤقتة ، ويعاود المريض من آن لآخر ، كذلك العلاج الاستهوائي ثبت أن نتائجه لا تكون في العادة مستديمة . ويمكن كذلك تشبيه العلاج الاستهوائي بالمرهم التي توضع على ما يظهر أحيانا على الجسم من بثور . فقد يكون السبب في ظهورها اضطرابا في المعدة . فالمرهم لا يعالج السبب الأصلي ، وانما يعالج العرض الظاهري . ويميل بعض المرضى الى العلاجات الاستهوائية لأنها تعطى نتائج سريعة . كذلك يميل اليها بعض المعالجين لأنها تعطى المريض في أول العلاج شيئا من الثقة في نفسه .

وقد كان العلاج الاستهوائي منتشرًا قبل ظهور التحليل النفسي ، وكان أطباء مدينة « ناسي » في فرنسا أشد الناس تمسكا به ودعاية له . ولكن عندما اتضح لـ « فرويد » أن التحليل النفسي يصل الى أعماق أبعد من تلك التي يصل اليها الاستهواء اقتصر على أساليب التحليل النفسي .

ثانيا - طريقة التعليم المجدد :

وهذه الطريقة مبنية على شرح المرض وشرح أسبابه . والذين يعتمدون عليها يعتقدون أن كثيرا من الأمراض العصبية مبنية على اعتقادات واهية ، ومهمة المعالج شرح فساد هذه الاعتقادات . ولعل الذين يذهبون الى عيادات الأطباء يلحظون أن بعضا منهم يشرح سبب المرض في بساطة ووضوح ، وفي هذا الشرح راحة المريض ، وهذه الراحة تنتج من أن المريض يفهم أو يظن أنه يفهم أسباب المرض . والواقع أن المريض لا يفهم دائما كل ما يقوله الطبيب ، وانما يؤدي شرح المرض وتوضيح أسبابه الى اعتقاد المريض بأن الطبيب يعمل على أساس علمي ، واعتقاد المريض كذلك بأن الطبيب يحترمه ويقدر ذكاهه ومقدرته الى الحد الذي يجعله يشرح له

بعضلات الأمراض . ولهذا السبب يعتقد الكثيرون أن التعليم المجدد بهذه الصورة ما هو الا طريقة من طرق الاستهواء . والشرط الأساسي فيه هو خضوع شخصية المريض لشخصية الطبيب . ومن شروطه الأخرى تكوين علاقة بينهما قائمة على التقدير المتبادل . وشرط ثالث هو الاقتناع أوتوهم الاقتناع من جانب المريض .

وليس من الضروري الاقتصار على الاقتناع عن طريق المناقشة . ويتبين ما نقصده من المثال الآتي : كان أحد الأطفال يخاف الظلام بدرجة كبيرة ، وكانت طريقة المعالج معه أن ناقشه ، فتحدث مع الطفل عن العفاريت وعن الأشباح ، وأخذ يقنعه بالمنطق البسيط الى أن ظهر أن الطفل قد اقتنع بعدم وجود سبب للخوف . ولكن خشي الطبيب أن الطفل مع علمه بعدم وجود سبب للخوف قد لا يجرؤ على التغلب على الأسباب المتأصلة في نفسه ، فنصحته بأن يحمل مصباحا (بطارية) ، ويدخل في حجرة مظلمة ثم يقف وسط الحجرة ويظنئ المصباح فإذا أحس بالخوف أضاءه . وهكذا يضيء المصباح ويظفئه ويظيل مدة اطفائه الى أن يمتلىء ثقة بنفسه . وغرض المعالج من هذا أن يقتنع الطفل عن طريق استعمال المصباح بأن ليس هناك سبب حقيقي للخوف .

ويلاحظ أن طريقة التعليم المجدد تشترك مع الطريقة الاستهوائية الايهامية في كونها طريقة سريعة سهلة يمكن أن تكون في متناول الأطباء العاديين والمدرسين ، ويمكن استعمالها لاصلاح الكثير من عيوب التلاميذ ومخاوفهم ونواحي شذوذهم .

ولكن يلاحظ أن نجاحها في بعض الأحيان على درجة بالغة من الصعوبة . فلم يكن من السهل استعمالها في معالجة حالة الضابط الذي كان يخاف الأماكن المغلقة . ومن الواضح أيضا أن نتائجها تكون في كثير من الأحيان مؤقتة . ولكن هذا لا يمنع من أن يلجأ اليها المدرسون كطريقة أساسية في اصلاح كثير من النواحي .

ومن أشهر من نجحوا في استعمال هذه الطريقة «ديبوا Dubois» وتلميذه « بلونديل Blondel » وكان «ديبوا» يعتقد أن الاضطرابات النفسية جميعها مسببة عن نقص الذكاء . وكان يقصد بالذكاء البصيرة . ومن رأيه أنه لو أمكن

اقناع المريض بالأسباب المعقولة لزال المرض . ولو كان الشخص قد اقتنع في الماضي بهذه الأسباب ، لكان في اقتناعه وقاية كافية له من الإصابة بالمرض ، ولعله من الواضح أن نظرية «ديبوا» بشكلها هذا بها كثير من المغالاة. ولكن نستنتج منها نتيجة هامة ، وهي أن احتمال وقوع الاضطرابات النفسية للأذكىاء ، أقل بكثير من احتمال وقوعها لمن هي دون المتوسط في الذكاء . وهذا يتفق مع المشاهد . ولعل السر في هذا أن الأذكىاء قادرون عادة على ارجاع الأمور الى أسبابها ، وعلى تعقلها وعلى احداث التكيف اللازم بينهم وبين البيئة .

ونستنتج مما تقدم نتيجة أخرى ، وهي ألا ندع الأزمات النفسية تمر على الشخص ثم تنسى وتختفى . بل يجب مناقشتها بصورة تجعلها لا تختفى في « اللاشعور » . فاذا كان الطفل خائفاً من شيء فلا يجوز أن نكتفي بابعاد الطفل عن مصادر هذا الخوف ، بل يجب اشعاره بعدم وجود مبرر للخوف ، وذلك بشرح الحقائق وتوضيحها . فقد حدث مرة أن رأى طفل في الثالثة من عمره قطعة تأكل صغارها ، فدعر الولد وخاف خوفاً شديداً وصرخ من هول المنظر صراخاً يدل على شدة فزعه ، فلجأ الى أحد الكبار بعد أن هدأ الموقف ، ووجه اليه أسئلة عدة كان من بينها ما اذا كانت كل أم تأكل أولادها . ومعنى هذا أنه كان قلقاً على نفسه بسبب ما رأى فأجيب في الحال بأن هذا لا يحدث من الآدميين ، وإنما يحدث نادراً من القطط والكلاب وبعض أنواع الحيوان . ثم كان أن تكرر التحدث مع الطفل بعد ذلك فيما حدث . ولم تكن هناك محاولة تؤدي الى نسيان الطفل هذه الخبرة المؤلمة ، بل على العكس شجعه من حوله على الاستمرار في اقتناء القطط ، ولم يتغير موقفه منها . هذا مثال تتضح فيه أهمية التعليم المجدد ، ويتضح فيه أنه أفاد نتيجة لاستغلاله في الوقت الذي وقعت فيه الحادثة . أما اذا كان الحادث متبوعاً بالترك والنسيان والكبت ، فإن النتيجة ربما كانت مشكلة نفسية يصعب علاجها بهذه الطريقة ، وقد لا يمكن علاجها الا بالتحليل النفسي

ويرى بعض الناس أن يضيف الى التعليم المجدد ما يحدث أحياناً من تغيير

في ظروف البيئة . فاذا فرضنا أن شخصا يشعر بانقباض في مكان ما ، فإني أنقله الى مكان آخر شارحا له سبب انقباضه في المكان الأول ، وسبب انشراحه في المكان الثاني ، مما يؤدي الى بعض التحسن . ويدخل في تغيير ظروف البيئة تغيير الوسط الاجتماعي ، وتغيير المدرسة ، وتغيير موضوعات الدراسة ، وتغيير المعاملة ، وغير ذلك . ويرى بعض المشتغلين بعلم النفس أن يفرّدوا لتغيير ظروف البيئة فصلا قائما بذاته يتميز عن التعليم المجدد .

ثالثا - التحليل النفسي :

سبق أن رأينا أنه لا بد من التعمق في بواطن العقل حتى نصل الى أسباب المشكلات النفسية . ورأينا كذلك أن الطرق التي ذكرناها وهي الطريقة الاستهوائية ، وطريقة التعليم المجدد ، وطريقة تغيير البيئة ، كلها طرق سطحية ، إذ أنها تتناول أعراض المرض دون أن تتناول العوامل البعيدة المنال . وطريقة التحليل النفسي هي التي تصل بنا الى التعمق والوصول الى هذه العوامل . وهي طريقة طويلة تحتاج الى مران كثير وتحتاج الى صبر وفن خاص لا يحذقه الكثيرون . وتتلخص الطريقة في استخراج أسباب المرض من الحالة اللاشعورية الى الحالة الشعورية . فالأمور المكبوتة تكون منفصلة عن النفس الشعورية ، والغاية من التحليل هو تحويلها الى الحالة الشعورية بحيث تتكامل مع الذات الشعورية ، وتندمج فيها ، وتصبح تحت سيطرتها. فالتحليل يرمي الى التكامل ، والتكامل هو عنوان الصحة النفسية، وأما الفصل والانقسام والكبت ، فإنها تدل على المرض النفسي .

وبالرغم من سهولة عرض طريقة التحليل النفسي ، فإن القيام بها أمر غاية في الصعوبة ، ولا يمكن المدرس أو الطبيب أن يمارسها الا بعد دراسة طويلة ومران خاص . وتقوم طريقة التحليل النفسي على الكلام المسلسل المنطلق من جانب المريض . فهو ينام أو يجلس في وضع مريح يساعده على الوصول الى حالة التراخي. ثم يتركه المحلل ليتكلم بدون التقيّد بقيود الخلق أو المنطق أو الدين أو التقاليد ، وتساعد حالة التراخي على انسياب الأفكار . وعلى المحلل ألا يتكلم أو يعلق على كلام المريض الا بمقدار ضئيل ، فيتركه ينساب في الكلام ويحسن ألا يتكلم بالمرّة خصوصا في المراحل الأولى من العلاج

وقد سبق أن رأينا في حالة الضابط كيف يكشف التحليل عن طريق
التداعي عن ارتباطات قديمة ترجع الى الطفولة الأولى . وعندما تمكن المريض
من الربط بين هذه الذكريات والأعراض ، انقشعت الحالة المرضية
واستعاد الضابط صحته ، وتابع حياته بصورة عادية . ويقاوم المريض في
الوصول الى عوامل المرض . ومن طرق المقاومة ألا يجد كلاما يقوله ،
أو يتحدث في أمور بعيدة عن الموضوع ، أو يعتذر عن مواعيد الجلسات .
ويظن البعض أن تذكر السبب الأصلي كاف لحل العقد النفسية ،
ولكن أهم شرط لحل هذه « العقد » ، هو أن يمر المريض في أثناء التحليل
بمثل الحالة الانفعالية التي مر بها عند وقوع الحوادث التي أدت الى بلورة
المشكلة . ففي مثال الضابط الذي كان يخاف الأماكن المقتلة ، لم يكن يكفي
أن نذكره بأن السبب في هذا عندما كان صغيرا خرج عليه كلب كبير في
مكان مقفل ؛ ولكن حدث في أثناء التحليل أن مر الضابط بمثل حالة الخوف
والرعب التي مر بها في الماضي ، وأدى هذا الى تفرغ الطاقة الانفعالية
المكبوتة . هذا التفرغ من العناصر الأساسية في التحليل النفسي الناجح^(١) .

ولا ينتهى العلاج عادة بكشف المريض لأسباب مرضه ، وإنما يحتاج
بعد ذلك الى شيء من التوجيه أو التعليم المجدد .

ولا يتبع المحللون طريقة واحدة . و « فرويد » وأتباعه يلتزمون الصمت
قدر الامكان ، ويقفون من المريض موقفا سلبيا ، ويعتمدون على الأحلام
كمفاتيح للنواحي المكبوتة . وهناك « شتيكل » وأتباعه وهم يرون اتخاذ
موقف ايجابي ؛ بأن يوجهوا بعض الأسئلة للمريض . ويعترض « فرويد »
على هذه الطريقة بأن فيها احتمالا بأن يسقط الطبيب مشكلاته النفسية
الخاصة على عقلية المريض . وينتج الطب النفسي الحديث الى الالتجاء الى
نوع من التخدير ينتج عنه انطلاق النزعات اللاشعورية المكبوتة في أثناء
الحديث . وهذا التخدير يحل محل التنويم المغناطيسى الذي يستعمل عادة
لتيسير التداعي .

(١) التفرغ « Catharsis, Abreaction, Purgation. »

ويختلف تحليل الكبار عن تحليل الأطفال في الأسلوب. فنجأ مع الأطفال الى اللعب لتشخيص اسباب مرضهم . وتستعمل في هذا مادة سهلة التشكيل كالرمل والطين . ويستعمل مع كل من الأطفال والكبار الرسم والكتابة ، وما الى ذلك من وسائل التعبير . أما طريقة التداعي الطليق والاعتماد على الأحلام ، فانهما يقتصران عادة على الكبار .

أهمية دراسة اللاشعور للمدرس

من الواضح أن المدرس الذي يتفهم طبيعة الحياة العقلية اللاشعورية يكون أكثر مقدرة على توجيه التلاميذ ويكون في العادة أكثر عطفًا عليهم من غيره ، إذ أنه يدرك القوى الباطنية التي تؤثر في تصرفات الأطفال بالرغم منهم . فالطفل الذي يندفع لمعاكسة زميله ، أو للخروج على النظام، أو للهرب من المدرسة ، قد يكون في هذا كله متأثرًا بعوامل لاشعورية ليس في وسعه أن يتحكم فيها . ونجد أن المدرس الذي يفهم هذه الناحية يدرك ما بهذه القوى من شدة وعنف وحتمية ، فلا يعود ينظر للطفل الذي يسرق أو يكذب أو يتمرّد على أنه طفل مجرم ، وإنما ينظر إليه على أنه ضحية قوى داخلية ، وضحية البيئة ومعاملة ذوي السلطة . ومتى أدرك المعلم هذه القوى والعوامل ، أمكنه أن يقطع شوطًا كبيرًا في الأخذ بيد الطفل في طريق الإصلاح فالحالات التي يمكنه معالجتها عن طريق التوجيه أو تغيير نوع العمل ، يمكنه أن يسدى إليها فائدة عظيمة . أما الحالات التي تستحق علاجًا خاصًا ، فانه يمكنه أن يكشف عنها ويوجهها للعيادات السيكولوجية التي تقوم بالمعالجة . وقد قطعت البلاد الأجنبية شوطًا بعيدًا ، إذ جعلت في كثير من المدارس متخصصًا تفسانيًا بكل مدرسة ، يقوم بالمعاونة مع بقية المدرسين بتفهم حالة كل تلميذ وتوجيهه طبقًا لهذه الدراسة .

وقد بدأ المدرسون على ضوء هذه الدراسات يفهمون ضرر الكبت والصد والأساليب الاستبدادية ، فنجدهم يعطون التلاميذ فرصًا كافية للنشاط الذاتي ، ويخلقون مجالات تظهر فيها الحرية التلقائية وبدأ يحل التفاهم والاخذ والعطاء والمناقشة محل الأمر والنهي والنظام الاستبدادي .

وقد ظهر في البلاد الأجنبية أن التلميذ المتمرد الخارج على النظام يكثر وجوده في المدارس ذات النظام الاستبدادي . وثبت كذلك أنه إذا نقل مثل هذا التلميذ الى مدرسة أخرى يقوم العمل فيها على التلقائية والحرية والنشاط الذاتي ، فان التلميذ يتغير سلوكه ويصبح شخصا عاديا أو ممتازا . وقد تبين كذلك أن نسبة غياب التلاميذ وتأخرهم واضرابهم عن الدروس تكبر في المدارس التقليدية ، وتقل كثيرا في المدارس التي تهتم بميول التلاميذ وبنشاطهم الذاتي الحر .

ويهتم المدرس الحديث بدرس ما يصدر عن الطفل من غير قصد ؛ ذلك لأن هذا النوع من السلوك يعبر تعبيراً صادقا عن الحياة العقلية بوجه عام ، واللاشعورية بوجه خاص . لهذا كان للرسوم الحرة والكتابات الحرة قيمة تشخيصية كبيرة . ويذهب بعض المدرسين الى أبعد من هذا فيجمعون رسوم التلميذ وكتاباته ، ويجدون فيها كثيرا من ميداني التعبير المختلفين .

وتهتم بعض المدارس بتشجيع التلاميذ على اقامة الحفلات التي يجد فيها التلاميذ متنفسا لكثير من نزعاتهم التي لا يسمح لها جو المدرسة العادي بالتعبير . فيقلدون مدرسهم وينتقدون الجو المدرسي في دعايات لطيفة .

كذلك يجد المدرس في هذه الدراسة فرصة لفهم نفسه . فكثير من مشكلات المدرس في داخل المدرسة يكون فيها انعكاس لمشكلاته الخاصة . فقد تنعكس مشكلاته مع زوجته وأولاده على علاقته مع تلاميذه عن طريق ما سميناه بالتحويل . كذلك التلميذ قد يعكس في جو المدرسة مشكلات تنشأ عن علاقاته في المنزل . فالتلميذ الذي يكره والده ولا يمكنه أن يعبر عن ذلك قد يجد متنفسا في المدرسة عندما يثور على النظام أو يضايق المدرس بمختلف الأساليب المعروفة .

ويمكن المدرس كذلك أن يفكر في أثر الثواب والعقاب ، وفي أثر المدح والذم ، وفي أثر اشغال المنافسة ، وفي اثر الرسوب والامتحانات على الحياة العقلية للتلميذ . ويبالغ بعض المدرسين أحيانا في عقاب التلميذ واذلاله والحط منه أمام زملائه ، فهم يلصقون بالتلميذ لافتة يكتب عليها كلمة

« بليد » مثلا ، وبعضهم يطلب من التلاميذ صفع واحد من زملائهم الى غير ذلك من الأساليب التي تبغض التلميذ في المدرسة بالرغم من اضطراره الى البقاء فيها . كذلك يمكن لوامضى المناهج أن يفكروا في أثر جفاف هذه المناهج ، وعدم اتصالها بميول التلاميذ ، وفي ازدحامها بالمادة العلمية ، وفي تدريسها تديرسا تلقينيا ، كل هذا من شأنه أن يقسم حياة الطفل العقلية قسمين أحدهما يميل لدراسة هذه المناهج حتى يكون مقبولا لدى المجتمع ، والآخر ينفر من دراستها لأنها لا تتفق مع النزعات الطبيعية . والى جانب عيوب المناهج توجد عيوب في مباني المدارس فيجب أن يكون في المدرسة ملاعب واسعة مجهزة بمختلف الأدوات ويجب أن تكون فيها المعامل والورش وغرف الاجتماعات ، مما يتيح الفرصة لنشاط ذاتي شيق يتصل بالميل والدوافع .

وعلى المدرسين أن يتخذوا الحيطة عند درسه لسلوك الأطفال . فالمدرس عرضة لأن يفسر تصرفات التلاميذ بحالات نفسية شبيهة بحالته . ويلحظ التلاميذ أن بعض المدرسين أكثر حساسية من غيرهم . فيحدث أحيانا أن يتندر تلميذ على قصيرى القامة ، فيهيج المدرس وينذر التلميذ بعقاب أشد مما يستحق لأن المدرس نفسه قصير القامة . ولعل التلميذ لم يكن يقصد المدرس اطلاقا . ولكن حساسية المدرس في هذا الاتجاه انعكست على الموقف وكانت لها هذه النتائج .

ويفيد المدرس من دراسته لسيكولوجية اللاشعور — كما بسطها يونج — في تقسيمه لتلاميذه . فهذه أميل الى الانبساط وذلك أميل الى الانطواء . ويفيد كذلك من التقسيم الادق الذى سبق أن بيناه . ويصل المدرس من هذا الى وضوح فهمه لتلاميذه ، فيصبح أقدر على اعطاء كل ما يلائمه من ناحية ، وما يكمل نقصه من ناحية أخرى . فالمنبسط يحتاج الى أن يتعود شيئا من عمق التفكير ، والمنطوى يحتاج الى التشجيع حتى يتصل بالناس وبالأشياء اتصالا واقعيا .

وجملة القول أن دراسة اللاشعور يجب أن يظهر أثرها في اعداد المناهج

وطرق تدريسها ، وفي اختيار المباني وتزويدها بالمعدات ، وفي فهم عقليات التلاميذ وتشخيصها وتوجيهها ، وفي ادارة المدرسة ادارة تقوم على التفاهم والاقناع ، وفي خلق جو اجتماعي يكثر فيه الأخذ والعطاء وتسوده المصارحة ، وفي تعديل العلاقة بين المدرس وتلميذه ، وكذلك في توجيه معاملة التلاميذ بعضهم لبعض ، وفي تشجيع كل ما من شأنه نمو الشخصية واثبات الذات بطريقة تقوم على الطمأنينة والثقة بالنفس وبالغير .

مراجع الباب الرابع

1. Burt : How the Mind Works, Ch. III & IV.
2. Fox : Educational Psychology.
3. Freud, A. : Psychoanalysis for Teachers.
4. Freud, S. : Introductory Lectures on Psychoanalysis.
5. Freud, S. : New introductory Lectures on Psychoanalysis.
6. Hadfield : Psychology and Morals.
7. Hard, B. : Psychology of Insanity.
8. Jones, E. : Psychoanalysis.
9. McDougall : Energies of Men, Ch. XVI — XXI.
10. Miller, C. : Psychoanalysis and its Derivatives.
11. Rivers : Instincts and the Unconscious.
12. Thomson : Instinct, Intelligence and Character, Ch. XVI.